عالم الرسول
ورحلة آل البيت !!

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

عالم الرسول
ورحلة آل البيت

محمد الشرقاوي شاه

الكتاب : عالم الرسول ورحلة آل البيت

الكاتب : محمد الشرقاوى شاه

(مصر)

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠٠٦

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٤٧٣٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-758 - 0

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى

وحدة الصف بالمركز

تنفيذ : سيد حرزاوى

تصحيح : زكريا منتصر

الشرقاوى، محمد

عالم الرسول ورحلة آل البيت/ محمد الشرقاوى. - ط ١ - القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٦.

١٦٠ ص؛ ١٤× ٢١ سم.

تدمك ٠ - ٧٥٨ - ٢٩١ - ٩٧٧

١ - أهل بيت الرسول

أ - العنوان

٢٣٩.٨

الشمس ترسل أشعة من لهب على وادى مكة، فتتوهج الأرض من شدة القيظ، وتلهث النوق الصابرة وهى ترعى فى منحنيات ضيقة، جرداء، تلتقط نوعًا جافًا من الشوك والعوسج!

ومكة راعية الكعبة وأصنامها، وأكبر مركز دينى للوثنية الجاهلية، وبها أكبر معابد العرب حينئذ، فكان العرب يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم المحيطة بالكعبة. من أجل ذلك كان أهل مكة «قريش» أشرف العرب، وجميع العرب يعترفون لهم بالسيادة.

كانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشارًا واسعًا، وقد صوروها أو نحتوها رمزًا لآلهتهم، وقد يرون فى بعض الأحجار والأشجار والآبار والحيوانات ما يرمز إليهم!

كانت عبادة «اللات» شائعة عند العرب الجنوبيين وفى الحجاز، وكان معبدها فى الطائف. وكانت «مناة» صخرة منصوبة على ساحل البحر بين مكة والمدينة، وكانت ترمز إلى إله الموت، فهى إلهة القضاء والقدر، وكانت معظّمة عند هُذيل وخُزاعة والعرب جميعًا، وخاصة الأوس والخزرج.

و«وَدّ» من الآلهة الجنوبيين، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث الأب والأم والابن، وكان صنمه بدومة الجندل، وكان «سواع» صنم هذيل وكنانة، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من العرب، وربما كان اسمه يدل على أنه إله الشر والهلاك. و«يغوث» وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن، وكان «يعوق» صنم هَمْذان وخولان وما والاها من القبائل، وهو يشير إلى أرواح حافظة، وكان «نَسْر» معبود حِميَر، وانتشرت عبادته فى الشمال!

وكان «وَدّ» على صورة رجل، و«سُواع» على صورة امرأة. و«يغوث» على صورة أسد، و«يعوق» على صورة فرس، و«نَسْر» على صور نسر من الطير.

ومن أصنام قريش المشهورة «إساف» و«نائلة» ويقال إنهما كانا

شخصين ارتكبا الفاحشة فى الحرم فمسخا حجرين، وعبدهما الناس!

وكان «إساف» ملاصقًا للكعبة وكانت نائلة بإزاء الركن الأيمن، ومن أسمائهم «مناف» وبه سمى عبد مناف.

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصابًا من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التى يتقربون بها إلى آلهتهم. وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقرًا لبعض الأرواح!

وكان العرب يؤمنون إيمانًا راسخًا بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، وكان منها أرواح خيِّرة، هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين.. فكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وكانوا يعدونها - كأصنامهم - من شفعائهم عند الله وشركائه، وكانوا يخافون الجن ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسبًا!

وكانوا ينكرون الرُسل وأن هناك إلهًا واحدًا، وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور.

* * *

الحياة الاقتصادية فى مكة قوامها التجارة وموسم الحج. فالبلدة جرداء غير ذى زرع، وقد هيأ الصدام الدائم بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة. فالطريق بين العراق والشام كان مقفلاً فتهبط تجارة الشمال والجنوب إلى مكة، ويعيد التجار المكيون تصديرها إلى جميع مدن وبوادى وقرى الجزيرة العربية.

ولم تكن أسواق مكة أسواقًا تجارية فحسب، بل كانت أسواقًا أدبية أيضًا تعرض فيها سلع الشعر فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكمون. وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق، سيطرت فيها لغة قريش بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها فى أسواق العرب خارج ديارها فأصبحت لغة قريش لغة الأدب الرفيعة.

وسكان مكة يأتلفون من طبقات ثلاث: طبقة السادة: وهى قريش،

فهم أهل البلد، الذين يربط بينهم الدم والنسب، وهم هاشم وأمية وتميمُ وعُدى وجُمَح وسهم وأسد ونوفل وزهرة.

وطبقة الحلفاء: وهى طبقة دون قريش، تعيش فى حمايتها، وهم أُناس من العرب ليسوا من قريش، أووا إلى مكة ليعيشوا فى ظلها آمنين فى دعة، ولم يكن يتاح لهم المُقام فى مكة مطمئنين إلا إذا حالفوا حيًا من أحياء قريش أو سيدًا من سادتها.

وطبقة العبيد: وهم رقيق قريش المجلوب من البلاد المجاورة وخاصة الحبشة، وهم يباعون ويُشتَرون مثل المتاع، وليست لهم أية حقوق، حتى حق الحياة أو الموت، وقد كانت مكة سوقًا رئيسية لتجارة الرقيق فى الجزيرة العربية.

إلى جانب هذه الطبقات الثلاث كان يعيش بمكة بعض اليهود والنصارى، جاءوا من بلاد الروم، كانوا يتجرون باللهو، يملكون الخمّارات وبيوت الدعارة، يُلهون من احتاج إلى اللهو من شباب قريش والوافدين إلى مكة. وبعض هؤلاء العجم كان يملك المصارف الربوية، يقرضون الناس بفوائد كبيرة، وضمانات قاسية، كانت تجعل المدين أحيانًا فى قبضة الدائن، فيصير عبدًا له، أو إحدى بناته أو زوجاته، إلى أن يسدد دينه!!

هؤلاء الرِّبيِّون، كانوا يعيشون فى مكة مطمئنين آمنين لا يعرض لهم أحد بمكروه، لحاجة الناس الشديدة إليهم.. فشاع فى المجتمع المكى على أيديهم الخمر والفجور والقمار، وافتتن بهم شباب العرب إلى درجة الهوَس!

* * *

ونمضى إلى شمال مكة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل، فنلتقى بيثرب «المدينة» وهى تقوم فى وادٍ خصيب، تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضًا، وتكثر الآبار والعيون فى هذا الوادى كثرة أتاحت له أن يصبح واحة

خضراء جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع، مع الجو المعتدل، إلا فى بعض فترات الصيف، إذ تشتد بها الحرارة، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية.

والعمالقة أول من سكنوا يثرب، وظلوا بها حتى نزل بها اليهود فى القرن الثانى الميلادى على أثر اضطهاد الرومان لهم فى فلسطين وهم الذين سموها «مدينتا» وهو اسم آرامى. وبقى اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها، مثلهم مثل بقية العرب. ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين، إنما كانوا يعتمدون على زروع بلادهم وثمارها، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة.

وحياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف فى شىء عن حياة البدو فى الخيام، مع أنهم سكنوا أطام المدينة. فكانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية. واليهود هم الذين عملوا على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم، حتى يشغلوهم عنهم وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التى يستخدمونها فى تلك الحروب الدموية. وتحرجت الظروف تحرجًا شديدًا بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب، وكأنما تعاهدوا على الفناء!

* * *

وإلى الجنوب الشرقى من مكة، على بعد خمسة وسبعين ميلاً، تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء، فكان القرشيون يصطافون فيها، حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الخمر الصافية. وكانت تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية. ولم تكن حياة الثقفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية فى شىء سوى

ما أتاحه لهم فى زروعهم وثمارهم من الاستقرار نحو ما استقرت قريش فى مكة.

ووراء المجتمع المكى كان يعيش العرب فى تُهامة ونجد وصحراء النفود وبوادى الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام. وكانوا لا يفضلون شيئًا على حياتهم الرعوية البدوية، لا يفضلون الزراعة، ولا الصناعة بل يحتقرونها، فلا حياة مثل حياتهم، حياة البساطة والحرية التى لا تُحَدّ، ووقفت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم، وتقيم أسوارًا من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطًا، فقليل من الشعير يكفيهم وإذا أضيف التمر واللبن، فذلك غذاء رافه. وكان لباسهم بسيطًا كغذائهم، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة وغطاء للرأس يمسكه عقال.

لكن هذه الحياة البسيطة لم تكن سهلة، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيَّات، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السَّموم، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم خيالات وأوهام، وما تمثل لهم من السَّعالى والجن والغيلان، وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض، إذ كانت حياتهم حياة حربية دائمة، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واترة موتورة.

وكانت حياة العرب فى شبه الجزيرة العربية، تقوم على سفك الدماء، حتى لكأنما صارت سنة من سننهم، فهم دائمًا قاتلون مقتولون، لا يفرغون من دم إلى دم. ولذلك كان قانون الأخذ بالثأر عندهم قانونًا مقدسًا، مصبوغًا بصبغة دينية.

إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا

من غرمائهم. ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق فى نقض هذه الشريعة، ولا الوقوف ضدها، أو الخروج عليها.

فما هى إلا أن يقتل أحد منهم، فإذا سيوف عشيرته مسلولة وتتبعها العشائر الأخرى فى قبيلته، تؤازرها فى الأخذ بثأرها، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية.. وتتوارثان الثارات، حتى يتدخل من يُصلح بينهما ويتحمل الدية والمغارم. ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقُم الأمر، وبعد أن تأتى الحرب على الحرث والنسل.. أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سُبَّة وعارًا كبيرًا!

وكأنما أصبح سفك الدم غريزة من غرائزهم، لا تزايلهم. فهم يطلبونه، وهم يتعطشون إليه تعطشًا شديدًا!

_ 1 _

كانت قريش قومًا تجارًا، وكانت خديجة بنت خويلد بن عبد العُزّى بن قصى بن كلاب امرأة تاجرة، ذات شرف ومال وجمال. تستأجر الرجال فى مالها، مقابل أجر تجعله لهم.

فلما سمعت عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، من صدق حديثه وأمانته، وعفته وشبابه وفتوته وجماله، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرًا، وستعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار.

فقبل محمد بعدما أخذ رأى عمه أبو طالب، وخرج فى مالها وخرج معه غلامها ميسرة.

ورجع محمد بمالها الذى خرج به، وقد تضاعف أضعافًا كثيرة.

وجلس ميسرة يقص عليها أخبار وطرائف الرحلة، وحسن صحبة محمد وأمانته وذكائه وصدقه. كان ميسرة يحكى،وخديجة شاردة، مطلقة عنان خيالها بعيدًا بعيدًا، فى أفق السماء، فى الأمل، فى محمد، هذا الشاب القوى الأمين، الرائع الخلقة والخُلق، فى هاتين العينين الجميلتين الواسعتين الكحيلتين، وهذين الحاجبين المقرونين، وهاتين الثنيتين الرائعتين، وهذا النور الذى يخرج من بينهما إذا تكلم، وهذا الصوت الرخيم الذى يأخذ بالقلوب، وهذا الصدق الذى تتفتح عليه العقول.

فى هذا القوام الجميل، فكان أحسن الناس قوامًا، فلم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير. كان مربوعًا، ليس بالطويل ولا بالقصير.. بعيد المنكبين، ضخم الكفين، ضخم القدمين، ضخم الساقين عظيم الساعدين، حسن الشعر، عظيم اللحية. مهندم الثياب. واثق الخطى. وفى عينيه بريق عجيب.

* * *

أصبحت خديجة وأمست على هذا الحب الكبير، لا يفارقها طيف

محمد، صورته الجميلة تلازمها، وحديثه الحلو يؤنس وحشتها، وعفته وطهارته تروى قلبها. فأنار حبه طريقها المظلم، ومسح عنها كآبتها وحزنها، وبدَّد وحدتها، وفجَّر أمامها الأمل.. بعد هموم ترمُّل ووحدة وحرمان وألم.

كانت قد تزوجت وهى فى العاشرة من عمرها[1]، عتيق بن عابد المخزومى، وولدت له عبد الله، ثم مات عتيق، فتزوجها هند بن زرارة التميمى فولدت له الحارث وهند وزينب.

تقوت خديجة وتجرأت، فدعت محمد إلى بيتها، وقالت له بصراحة امرأة طاهرة: «يا ابن عمٍّ.. إنى رغبت فيك، لقرابتك وفضلك، وأمانتك.. وصدق حديثك.. وحسن خلقك» ثم عرضت عليه نفسها!

فرح محمد.. وعرض الأمر برمته على عمه أبى طالب، ففرح عمه.. وحمد الله تعالى الذى هدى ابن أخيه إلى أعظم امرأة فى قريش.

خرج محمد، وخرج معه عمه أبو طالب وعمه حمزة، حتى دخلوا على خديجة بنت خويلد، وعندها عمها عمرو بن أسد، وابن عمها ورقة بن نوفل. فتكلم أبو طالب بعدما حمد الله وأثنى عليه:

- «.... إن ابن أخى محمد بن عبد الله، لا يوازن به رجل إلا رجح به شرفًا ونُبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان فى المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعه، وهو والله بعد ذلك نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة».

فرد عليه عمها عمرو بن أسد قائلاً: «هو الفحل لا يقدح أنفه».

وقال ورقة بن نوفل: «.. إنا نريد الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىَّ أنى قد زوجت خديجة من محمد».

* * *

تزوج محمد خديجة، وهو ابن خمس وعشرين، وهى ابنة أربعين سنة! وعاش فى بيتها الكائن فى زقاق الحجر بمكة، ويقال له زقاق

(١) كانت شريفات العرب تتزوجن فى سن مبكرة وهذه عادة بدوية معروفة.

العطارين، حيث كانت دور قريش حافة بالكعبة، متبركة بها.

وتحتوى دار خديجة على أربع غرف واسعة، ثلاث داخلية، منها: واحدة لبناته، والثانية له ولزوجته، والثالثة لعبادة ربه، والرابعة بمعزل عنها للضيوف، وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع «حوش» مساحته ستة عشر مترًا فى سبعة أمتار ويرتفع عن الأرض بنحو متر، وفيه كانت خديجة تخزن تجارتها قبل الزواج.. فلما تزوجت محمدًا اعتزلت التجارة، واستعملت المساحة هذه لاستقبال الضيوف.

وكان زواجًا سعيدًا مباركًا، فقد أنجبت له القاسم والطاهر وعبدالله، لكنهم ماتوا جميعًا وهم صغار، ثم رزقه الله بثلاث بنات كالأقمار، ورثن جماله وجمال خديجة، وهن زينب ورقية وأم كلثوم.

* * *

لكن، أين محمدًا؟! أين ذهب الزوج العطوف؟! وكيف هان عليه أن يترك حبيبته وأم عياله وحدها تعانى آلام المخاض منذ الصباح؟!

أما كان للزوج الحنون أن يكون بجوار زوجته فى مثل هذه الظروف؟!

لكن محمدًا قد انشغل بما هو أعظم، انشغل بقومه، فقريش مجتمعة فى الكعبة منذ أربع ليالٍ، وقد هموا بقتال.. فكل قبيلة مصرة ألا يفوتها شرف إعادة الحجر الأسود إلى موضعه.. كان ذلك بعدما تعاونت قريش جميعًا فى إعادة بناء الكعبة.

وعندما بلغت القلوب الحناجر، ووصل التفاهم إلى طريق مسدود، واستلت السيوف، اقترح بعض العقلاء أن يُحَكِّموا بينهم رجلاً يرضون جميعًا بحكمه، وأجمعوا أن يكون محمد بن عبد الله زوج خديجة بنت خويلد، فهو الصادق الأمين، ولم يعرفوا له خطأ ولا كذبة.

وعندما دخل عليهم محمد، صاحوا: «هذا محمد الأمين.. رضينا به حكمًا» فطلب ثوبًا وأخذ الحجر فوضعه فيه بيديه، ثم قال لهم: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا»!

فلما بلغوا به موضعه، وضعه هو بيديه ثم بنى عليه. فرضى العرب بحكمه، وتلاشت نذر الحرب العقيم، وانقشعت سحب العصبية، ونامت الفتنة، وكمنت نار الثارات المتوهجة، تحت رمال صحراوية ناعمة، فتنفست قريش الصعداء، وشكروا لمحمد هذا الفهم العجيب!

هرول محمد وابن عمه الصغير يمشى وراءه، راجعين إلى البيت، فما كان يشغل الحبيب أن يكون بجوار حبيبه فى مثل هذا الوقت إلا جسامة الأمر وعِظَم المسئولية.

واستقبلته ريحاناته زينب ورقية وأم كلثوم عناقًا وتقبيلاً من شدة الفرحة، والقابلة تقف على باب خديجة تنظر إليهم نظرة مشرقة، فبشرته بطفلة رائعة، فضحك محمد مبتهجًا وحمد الله تعالى، وأكرم القابلة، فأعطاها عطية رجل كريم لا يخشى الفقر.

ودخل على خديجة الراقدة فى سريرها، وبجوارها مولودتها المباركة، فضحكت له، وضحك لها، وبشرته بعينيها الواسعتين الكحيلتين، فمال يقبلها ويمسح حبات العرق عن وجهها الأبيض المزدهر: «حمدًا لله تعالى على سلامتك يا حبيبتى» ثم شال مولودته بيديه وقربها إلى صدره، يقبلها ويشمها ويتأملها طويلاً ثم ينطلق صوته قائلاً لها: «يا خديجة أبشرى.. إنها النسمة الميمونة المباركة.. وسيجعل الله نسلى منها».

ويسميها فاطمة، على اسم زوجة عمه الغالية فاطمة بنت أسد بن هاشم. ويناولها «عليًا» فيشيلها علىّ بيديه فرحًا، ويقربها إلى قلبه، يقبلها ويشمها، فيسرى فى أوصاله دفء وحنين عجيب، ويتفجر فى صدره نور كثيف، وهو قد سمع ابن عمه منذ قليل يقول لخديجة إنها النسمة الميمونة المباركة، وسيجعل الله نسلهما منها.

فعلىّ يحب محمدًا أكثر من أبيه أبو طالب وأمه فاطمة بنت أسد وأكثر من إخوته جعفر وعقيل وطالب وأم هانئ. ولقد كان محمد قدوته، وهاديه، وكافله، ومُصلح أمره،.. رباه فى حجره منذ كان يعيش فى كنف

عمه أبى طالب وزوجة عمه فاطمة بنت أسد، وعندما انتقل إلى بيت الزوجية (بيت خديجة) أخذ معه حقه، أخذ عليًا!

وأراد أن يخفف عن عمه أبى طالب من كثرة عياله، وقلة ماله، عندما أصاب قريش قحط شديد.

_ 2 _

كان محمدًا يحب الخلاء، فكان يغار بحراء، يتفكر فى الله تعالى الليالى ذوات العدد. حتى فجأه الحق، أتاه جبريل فقال له: «يا محمد أنت رسول الله!»

فجثا محمد لركبتيه يرتعد وهو قائم، ثم زحف ترتجف بوادره وعاد إلى بيته يرتعد من الخوف، وجعل يقول لزوجته خديجة «زملونى.. زملونى!».

ثم أتاه مرة أخرى فقال له: «يا محمد.. أنت رسول الله، وأنا جبريل!».

فهمَّ أن يطرح نفسه من فوق الجبل، من شدة الهلع!!

وانصرف راجعًا إلى خديجة، وكانت قد بعثت رسلها فى طلبه، فجلس إلى فخذها، ملتصقًا بها، مائلاً إليها، فقالت له، مهدئة من روعه:

«يا أبا القاسم، أين كنت، فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ»؟! فقصَّ عليها ما رأى، فقالت له:

«أبشر يا ابن عمٍّ واثبت، فوالله الذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة».

فدثرته فى فراشه، وغطته ببردته، ثم بقيت إلى جواره حتى دهمه النعاس. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، وانطلقت إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل (وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل) فأخبرته بما أخبرها به زوجها محمد. فانتفض ورقة ناهضًا على قدميه، وجعل يصرخ: «قدوس، قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لقد جاء الناموس الأكبر (يعنى جبريل) وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت»،

فانطلقت خديجة مسرعة إلى البيت، تنادى زوجها: «يارسول الله!!».

* * *

أقبل رسول الله، فرمى بصره إلى أفق السماء مستبشرًا، ثم استقبل الكعبة، ولم يلبث حتى جاء على بن أبى طالب - وهو يومئذ ابن عشر سنين - فقام على يمينه. فلم يلبث حتى جاءت خديجة، فقامت خلفهما، فركع رسول الله، فركع علىّ وركعت خديجة فرفع رسول الله، فرفع علىّ ورفعت خديجة، فخر رسول الله ساجدًا، فسجد علىّ وسجدت خديجة!

وكان رسول الله إذا حضرت الصلاة، خرج إلى شعاب مكة وخرج معه عليًا، فإذا أمسيا رجعا معًا.. وذلك قبل أن تشرع الصلاة ليلة الإسراء.

ورآهما أبو طالب يومًا يصليان، فسأل رسول الله قائلاً:

- «يا ابن أخى، ما هذا الذى أراك تدين به؟!»

فقال: « أى عَمِّ، هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثنى الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق مَنْ بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه».

فشد أبو طالب على عضد علىّ وقال له:

- «أما إن محمدًا لا يدعوك إلا إلى خير.. فالزمه»!

فى اليوم التالى أقبلت زوجته «فاطمة بنت أسد» فبايعت رسول الله، وبايع ابنها جعفر بن أبى طالب وبايعت معه عروسه الصغيرة أسماء بنت عميس.

* * *

جلس رسول الله يداعب فاطمة، يضحكها ويقبلها، حتى نامت فى حجره. فتدركه رحمة جده عبدالمطلب، فلا يملك دموعه، ويتفجر حزنه الدفين، وينتابه إحساسه الكامن باليتم.

لقد احتضنه جده بعد وفاة أمه «آمنة بنت وهب» فرباه فى حجره، وأولاه حبًا عظيمًا، وآثره على بقية أولاده وأحفاده، فعندما كان محمد يثب على فراش جده ويلعب فى حجره ويعبث بلحيته، فيأخذه أعمامه وتأخذه عماته

من فراش أبيهم، يزجرهم ويقول لهم: «دعوا ابنى.. فإنه ليؤنس ملكًا».

وعندما كان يحتضر، ومحمد حينئذ ابن ثمان سنين، يقف منزويًا وراء سريره يبكى محترقًا، وعماته حوله يولولن ويندبن، ويعددن مآثره.

ويدنى عبدالمطلب محمدًا ويضمه بيديه المرتعشتين، ثم يقول لابنه أبو طالب (أخو عبدالله الشقيق فكانا لأم واحدة). «احفظ ابنى، ولا تدع مكروهًا يصل إليه».

وترتخى أطراف عبدالمطلب مستلسمة للموت، ويتشبث محمد بجثمانه، فلم يجرؤ أحد على إبعاده عن سرير جده، لقد كان جده كل شىء له، وبعده لم يبق له من الدنيا شىء، ويتجدد إحساسه باليتم!

* * *

يقطع شريط الذكريات، طرق شديد على الباب.

فتدخل بنات رسول الله تبكين على صدره.

وكانت قريش قد ائتمرت برسول الله فى بناته قائلة:

«إنكم قد فرغتم محمدًا من همه، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن».. ومشوا إلى أصهار النبى الثلاث فقالوا لهم واحدًا تلو الآخر: «فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت»!

وكانت رقية وأم كلثوم عند ابنى أبى لهب (عم رسول الله الأكبر) فأقسمت زوجته أم جميل بنت حرب (أخت أبو سفيان) ألا يظلها هى وابنتى محمد سقف واحد.. ثم مازالت بزوجها حتى أثارت حفيظته على العروسين، وحجرت قلبه على ابن أخيه، فقال لولديه محذرًا «رأسى من رأسيكما حرام، إن لم تطلقا ابنتى محمد»!

وأنت يا زينب، يا بنت رسول الله - لماذا تبكين؟! طلقك زوجك أبو العاص بن الربيع (ابن خالتك هالة بنت خويلد)؟!

قالت زينب وهى تمسح دموعها فى قميص أبيها:

«ما على نفسى أبكى، ولكنى أبكى ما أصاب أختاى رقية وأم كلثوم

وما كابدتاه فى بيت عمهما الجاحد الكافر وامرأته حمالة الحطب»!

ثم ابتسمت ابتسامة حالمة مشرقة مفعمة بالحزن وقالت:

«أبو العاص يحبنى أكثر من نفسه، ويحب خالته خديجة، ويعرف أن أبى صادقًا أمينًا، لكنه يخاف مفارقة دين قريش، فيعيروه بأنه اتبع دين زوجته. لقد قال لى: (والله ما أبوك عندى بمتهم، وليس أحب إلىّ من أن أسلك معكِ يا حبيبة فى شِعْب واحد، لكنى أكره لكِ أن يقال، إن زوجك خذل قومه وكفر بآلهة آبائه إرضاء لامرأته، فهلا قدرتِ وعذرتِ)!.. فأبو العاص تمسك بى بقوة أمام تهديد ووعيد قريش له، وقال لهم: إنه لا يعدل بى نساء قريش، بل ونساء الأرض أجمعين».

ثم تدنو زينب من أمها خديجة، وتنام على صدرها، تبكى كأنها لم تبك من قبل!

* * *

ويعم جو من الصمت الرهيب والحزن، فى بيت رسول الله، زينب نائمة على صدر أمها خديجة وفاطمة فى حجرها، ورقية وأم كلثوم نائمتان على صدر أبيهما رسول الله، وعلىّ يجلس مكروبًا لما أصاب أهل البيت النبوى، كانت فاطمة حينئذ ابنة أربع سنين، وعلى ابن عشر سنين.

ويقطع هذا الصمت الحزين، طرق رقيق على الباب:

- افتح الباب، فانظر من الطارق يا علىّ.

- إنه صديقك أبو بكر يا رسول الله.

- أدخله فى حجرة الضيوف، واعمر الخادم أن يقدم له الطعام والشراب.

جلس أبو بكر بين يدى رسول الله وقال له بصوت رقيق:

- بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله».

فقال رسول الله ﷺ: «نعم يا أبا بكر، إن ربى جعلنى بشيرًا ونذيرًا وجعلنى دعوة إبراهيم، وأرسلنى إلى الناس جميعًا».

فقال أبو بكر مستسلمًا: «والله ما جربتُ عليك كذبًا، وإنك لخليق بالرسالة، لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن مقالك.. مُدَّ يدك فإنى مبايعك»[1].

وصمم أبو بكر أن يعزّ الإسلام ببعض أصدقائه من سادة قريش الذين يسمعون منه ويثقون به. وبعد عدة أيام طرق باب رسول الله ومعه عثمان بن عفان الأموى، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، فبايعوا رسول الله، ثم انطلقوا يبشرون بدعوته الجديدة.

وبعد عدة أيام تقدم عثمان يسأل رسول الله شرف المصاهرة فزوجه ﷺ ابنته رقية، ولم تر مكة زوجان قط أجمل منهما ولا أبهى، لكن مكة لم تشارك هذه المرة فى الاحتفال بالعرس الكريم، بل باتت قريش بغيظها يمسسها السوء، بتحدى محمد وأصحابه!

_ 3 _

تذامرت قريش على من فيها من القبائل من أتباع محمد الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، وأصبحت قريش وأمست مشغولة بعذاب وفتنة المستضعفين الذين آمنوا بالله ورسوله، فلم تبق فى مكة دار إلا ويذكر فيها أمر ياسر وسمية وعمار، وأمر بلال بن رباح وخباب وصهيب... وغيرهم.

ومنع الله تعالى رسوله منهم بعمه أبى طالب، الذى كان يحمى دمه ويحرسه.

وأطلقت قريش يدها فى إيذاء رسول الله والصدود عن دعوته. وفى

(١) كان لأبى بكر مكانة عظيمة فى قريش قبل الإسلام، فقد اشتهر بالصدق، فكان «ضامن» قريش المقبول الضمان، وكلت إليه الديات والمغارم، وهو صاحب العقل الراجح، والمثقف العربى الرفيع، الذى اضطلع على الثقافات المختلفة، وهو الأديب الرقيق الطبع، العالم بالأنساب ورواية الشعر.

الطريق، قرب الصفاة، استوقفت امرأة قرشية حمزة بن عبدالمطلب، عم رسول الله وأعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة.

فقالت له: «يا أبا عمارة.. لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبى الحكم بن هشام؟! وجده ها هنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف لم يكلمه محمد»!

ولم يرد حمزة بكلمة، لوى عنان فرسه وقد احتمله الغضب، فلم يتوقف حتى بلغ البيت العتيق، فلمح أبا الحكم بن هشام جالسًا هناك بين القوم يتشدق بما آذى به محمد. فشق حمزة طريقه إليه، صامتًا لا يتكلم، إلى أن قام على رأسه فرفع قوسه وشجه شجة منكرة، وهو يقول متحديًا: «أتشتم محمدًا وأنا على دينه وأقول ما يقول؟! فَرُدَّ ذلك علىّ إن استطعت!».

ونظر القوم إلى الدماء تغطى وجه أبى جهل، مخضبة لحيته وقميصه، فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة، لينصروا أبا جهل وهنا وقف حمزة وقفة الأسد الجسور الأبى مستعدًا للقتال، فانكمشوا أمامه مذعورين، واكتفوا بشتمه مثل النساء وقالوا له: ما نراك يا حمزة إلا قد صبوت»!

وسعى حمزة من فوره إلى ابن أخيه رسول رب العالمين ليطمئن عليه.. وكان عنده أصحابه يسمعون منه القرآن. فأقبل عمر بن الخطاب فنهض إليه رسول الله على الباب فلقيه بشدة وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟! فوالله ما أراك تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة؟!».

فيجيب عمر فى استسلام وخضوع:

- «جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله»!!

عندئذ كبر رسول الله تكبيرة عرف منها أهل البيت والصحابة أن عمر قد أسلم. فهنأه صديقه حمزة وبشره قائلاً: «أبشر يا عمر، فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين، إما أبو الحكم بن هشام وإما عمر بن الخطاب».

وانصرف عمر راجعًا إلى بيته، وفى ذهنه تتردد أصداء كلمات الله، التى سمعها من رسول رب العالمين.. وفى طريقه مر على بيت أبى جهل فطرق على بابه، فخرج له مرحبًا به بحرارة قائلاً:

- «مرحبًا بك يا ابن أختى، ما جاء بك؟!».

فقال عمر مستبشرًا: «جئتك لأخبرك أنى قد صدقت بما جاء به محمد ﷺ»!

فصعق أبو جهل، وضرب الباب فى وجهه وجعل يشتمه ويقول له:

- «قبَّحك الله، وقبَّح ما جئت به!».

ودخل عمر بيته راضيًا مرضيًا، وباتت قريش فاقدة توازنها بإسلام حمزة وعمر، فباتوا بين بين مصدق ومكذب!

* * *

فلما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانة من الله من عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أنه يمنعهم مما هم فيه من البلاء، أمر بالهجرة إلى الحبشة، وقال لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة! فإن بها ملكًا لا يُظلم أحد عنده، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجًا مما أنتم فيه».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله، مخافة الفتنة وفرارًا بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام.

وهاجرت رقية بنت رسول الله مع زوجها مفارقة أهلها ووطنها فبكت تطوف بمغانى الصبا مودعة، تعانق أباها وأمها خديجة الطاهرة، وأخواتها زينب ورقية وفاطمة، قبل أن ترحل مع زوجها إلى ذلك البلد النائى المجهول!

حتى إذا انتهوا إلى الشُّعيبة، منهم الراكب ومنهم الماشى، ركبوا سفينة

لأحد التجار حملتهم إلى أرض الحبشة. وكان مخرجهم فى رجب فى السنة الخامسة من مبعث الرسول ﷺ. وخرجت قريش فى أثرهم حتى جاءوا البحر، حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحدًا.

وقدم المسلمون الحبشة، فجاوروا بها خير جار، أمنوا على دينهم وعبدوا ربهم، لا يؤذون، ولا يسمعون شيئًا يكرهون، وكان النجاشى ملك الحبشة قد دخل فى الإسلام، إلا أنه كتم الأمر خوفًا على مُلْكه من سلطة الكنيسة الحبشية.

وأذن رسول الله بالهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان جعفر بن أبى طالب أميرًا للمهاجرين، وهاجرت معه زوجته أسماء بنت عميس.

خرج جعفر بن أبى طالب وزوجته، فتتابع المهاجرون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه، وكان عددهم اثنين وثمانين رجلاً.

لما خرج من خرج من المسلمين، مهاجرين إلى أرض الحبشة، ورسول الله مقيم بمكة يدعو إلى الله ليلاً ونهارًا، قد منعه الله بعمه أبى طالب، وبمن استجاب لنصرته من بنى هاشم، ورأت قريش أنهم لا سبيل لهم إليه، رموه بالسحر والكهانة والجنون، وجعلوا يصدون الناس عنه بالقوة، ويعذبون المستضعفين من المسلمين عذابًا أليمًا حتى الموت، ليفتنونهم عن دينهم إن استطاعوا.

ثم جاءت حرب التجويع والحصار الشامل، فاجتمع الكفار بزعامة أبى جهل وأبى سفيان، فأتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاهدون فيه، على ألا ينكحوا إلى بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، ولا ينكحوهم ولا يبتاعون منهم، فكتبوا بذلك صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة، توكيدًا بذلك الأمر على أنفسهم.

فأقاموا على هذه المقاطعة الشاملة، وهذا الحصار اللاإنسانى ثلاث سنوات كاملات العدد! حتى أوشك بنو هاشم على الهلاك والموت جوعًا،

ودهم الشيوخ والأطفال المرض والموت من شدة الجوع وسوء التغذية، ومرض أبو طالب ومرضت خديجة فأوشكا على الموت!

وتتحرك ضمائر نفر من قريش، رقوا لأبناء عمومتهم الذين أوشكوا على الهلاك. واتفقوا أن يجتمعوا فى الكعبة فيتبرأون من صحيفة المقاطعة الظالمة، فغدا زهير بن أبى أمية، عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس وقال: «يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم! والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة»

فقال أبو جهل وأبو سفيان، وكانا فى ناحية الحرم: «كذبت، والله لا تُشق!».

فقال زمعة بن الأسود: «ما رضينا كتابتها حين كُتبت».

وقال البحترى: «صدق والله زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها ولا نُقر به».

فقال مُطعم بن عدى: «صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها».

وقال هشام بن عمرو: «نبرأ والله مما كتب فيها».

فقال أبو جهل وأبو سفيان مُحتجان: «هذا أمر قضى بليل، وتُشور فيه، بغير هذا المكان».

كل هذا الحوار والجدال، وأبو طالب يجلس صامتًا حزينًا فى ناحية المسجد، يبدو عليه الضعف الشديد والمرض من آثار الجوع والمقاطعة الظالمة.

فقام المُطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرَضَة قد أكلتها إلا ما كان من «باسم الله» وهى ما كانت قريش تفتتح بها كتابها إذا كتبت!

أما كاتب هذه الصحيفة، وهو «منصور بن عكرمة بنى هاشم بن عبد مناف» فشُلَّت يده!

- 4 -

فى صباح يوم مشرق، صحب على بن أبى طالب أبا ذر الغفارى، لمقابلة رسول الله ﷺ سرًا، وكانت قريش تمنع أى غريب من لقائه -

وكان النبى راقدًا على شىء كالمصطبة.. قد أسدل ثوبه على وجهه، فنبهه أبو ذر، فانتبه ﷺ، فقال أبو ذر: «أنعم صباحًا».

فقال ﷺ: «عليك السلام».

قال أبو ذر: أنشدنى ما تقول!».

قال ﷺ: «ما أقول الشعر! ولكنه القرآن الكريم، وما أنا قلته، ولكن الله تعالى قاله».

قال أبو ذر: «إقرأ علىّ».

فقرأ النبى ﷺ سورة من القرآن، فقال أبو ذر:

- «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله».

فسأله رسول الله: «ممن أنت»؟

قال: «أنا من غِفار واسمى أبا ذر»!

فأحدثت إجابته فى ذهن رسول الله عجبًا عجيبًا، وشرد بخياله بعيدًا، فوضع يده على جبهته مستعظمًا أن يأتيه من تلك القبيلة من يرغب فى الإسلام وهو ما يزال يدعو إليه سرًا[1]. وجعل يرفع بصره فيه ويصوبه، تعجبًا من ذلك لما كان يعلم منهم، ثم قال:

- «إن الله يهدى من يشاء!».

واستضافه أبو بكر الصديق فى داره عدة أيام، كان يتردد فيها على رسول الله سرًا، يتعلم منه ويرتوى بهداه.

وانطلق أبو ذر يحمل لقومه خير الدنيا والآخرة، فأسلمت قبيلته كلها على يديه، وقد شرح الله صدورهم للإيمان، وفرح رسول الله فرحًا عظيمًا بإسلام غفار وأسلم وسجد لله تعالى شكرًا، وقال: «غفار غفر الله لها، وأسلم سلمها الله».

---

(١) على طرف بادية العرب بجوار البحر الأحمر، كان يمتد طريق القوافل بين مكة والشام، وعلى هذا الطريق كانت تقيم قبيلة غفار، التى ينسب إليها أبو ذر، وكانوا قطاع طرق على أشد ما يكون قاطع الطريق فى بادية جاهلية - وقد كان لغفار فى ذلك شهرة مخوفة آثمة، وكان أبو ذر سيد قومه، رجلاً شجاعًا ينفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على القافلة فى عماية الصبح كأنه السبع!

وبعد يومين، تسلل إليه سيد قبيلة، «دوس» الشاعر الفحل «الطفيل بن عمرو» وحدثه رسول الله ﷺ حديث القلب والعقل، وكان الطفيل عالمًا بلسان العرب، وشاعرًا من كبار شعرائهم، حكيمًا، مهابًا فى قومه، فعاد إلى قومه يخبرهم بإسلامه، فأسلم على يديه أهل بيته وأبويه، ثم أقنع بدين الله تعالى قبيلته كلها، لم يتردد منهم أحد، وفرح رسول الله فرحًا عظيمًا، وسجد لله تعالى شكرًا، ودعا لهم.

* * *

كانت رقية بنت رسول الله أشد المهاجرين حنينًا إلى أرض الوطن (مكة) ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل، مثلما افتقدتهم آنذاك، وبقيت رقية فى الحبشة مع زوجها عثمان، وقلبها متعلق بمكة، وقد أثرت الأحداث الشداد عليها فأسقطت جنينها الأول، حتى خيف عليها من فرط الضعف والإعياء.

ورجع أكثر المهاجرين إلى مكة، بعدما حملت إليهم الأنباء أن الحال فى مكة قد تغير، فقد فشلت حرب المقاطعة والتجويع التى ضربت على بنى هاشم رهط النبى ﷺ، لأنهم لم يخلعوه، وظلوا يحرسون دمه. وفشلت سياسة البطش والتعذيب مع المؤمنين المستضعفين.. فعادت رقية بنت رسول الله وزوجها عثمان بن عفان، وعاد عبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وأبو سلمة بن عبدالأسد ومعه امرأته أم سلمة هند بنت أمية، كلهم عادوا بزوجاتهم إلا القليل دفنوا هناك تحت أرض الحبشة.. وعادت من بينهم امرأة وحيدة، مسنة، تركت زوجها تحت التراب هناك، وما برحت تشكو بعده الحاجة والوحدة.. فعرض رسول الله على غير واحد من صحبه أن يأسو جراحها ويتزوجها، ولكن المرأة لم ترق لأحد، فقد كانت سمينة جدًا، سمراء البشرة، وقد دهمتها الشيخوخة.. لكن رسول الله ﷺ تزوجها هو، وضمها إلى بيته عسى أن يكون هذا عزاء جميلاً لها.

وآبت رقية إلى بيت أبيها مشوقة مجهدة، فخففت أختاها أم كلثوم

وفاطمة بلقائها متشبثتين بها ومتعانقتين، تغالبان الدمع، وتتكلفان الجلد، ثم جاءت زينب من بيت زوجها أبو العاص فهوت على أختها رقية وهى لا تملك دموعها. ثم عم صمت حزين أدخل الريبة فى قلب رقية. فدخلت تبحث عن أمها خديجة فى غرفات الدار، تنادى عليها ملهوفة مذعورة، فأطرقن صامتات، متحجرات العبرات، هنالك أدركت رقية أن أمها خديجة، قد ماتت، فتهالكت على فراشها جامدة العين، زائغة البصر، مثلجة الأطراف إلى أن جاء أبوها فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة لقائه، وحضنه الدافئ، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخرى الذى جثم على قلبها وأوت إلى صدره الرحيب تبكى وكأنها لم تبك من قبل. ولم يطل بها المقام بمكة، هاجرت إلى المدينة وهى تحمل فى قلبها غصة ولوعة فراق أمها خديجة.

وكان عامًا حزينًا على قلب رسول الله، فقد مات عمه أبو طالب، وماتت زوجته خديجة بعده بثلاثة أيام، وكأن أبو طالب وخديجة كانا متواعدين على الموت، وقد كانا ركنين شديدين فى حياة النبى. ولكم عانى عمه من أجله، وكم ذا عانت خديجة!

ومكث رسول الله يبكى عمه أبو طالب طويلاً، وانكب على قبر خديجة، متقطع القلب.. لقد غمرته بحبها وحنانها، وثبّتته وقوّته على تحمل أذى المشركين وأعباء الرسالة الثقيلة، وكان رسول الله يحفظ لها حقها، ويُقدِّر مكانتها وفضلها، فأحبها كما لم يحب أحدًا من قبل، وقنع بها الأعوام كلها، وقد كبر سنها، ودهمتها الشيخوخة، ولكنه لم يتحول عنها لحظة واحدة، ولم يفكر أن يأتى لها بضُرَّة طوال حياتها.

ولم تصبر عليه قريش حتى يمسح دموعه.. فما كاد ينجع بأبى طالب وخديجة حتى انقضّت على أنصاره الذين عادوا من الحبشة، تطارد تجارتهم وتعذب من يقع فى يدها.

واقترح عليه عمه العباس أن يذهب إلى الطائف، فهناك تعيش ثقيف، وقد يدخلون فى دعوته وينصرونه على قريش.

وأقبل رسول الله على الطائف يدعو ثقيفًا للإسلام، يتلو عليهم آيات الله، وما فيها من تحريم للزنا والربا ولحم الخنزير وشرب الخمر، ويأمرهم بالمساواة، فالناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عبد وسيد ولا أبيض على أسود، إلا بالتقوى.

وكانت حياتهم تقوم على استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وأموالهم تتكدس بتجارة الدَّعارة والربا ولحم الخنزير.. من أجل ذلك طردوه وأغروا به سفهاءهم يلاحقونه فى الطريق ويسدون آذانهم إذا هم أن يتكلم، ويقذفونه بالحجارة. فسال دمه، وظل يسيل على أرض الطائف، وهم يطاردونه بالحجارة هو ومولاه زيد بن حارثة.

فاستلقى وحيدًا أمام أسوارها المنيعة البيضاء تتصاعد الزفرات من حبة قلبه وهمهم يدعو ربه ويقول: «إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟. إن لم يكن بك غضبٌ علىّ فلا أبالى».

ثم أخذ بيد فتاه، وانطلقا وهما ينزفان إلى رمال الصحراء حتى رجعا إلى مكة مكسورى الخاطر. وسبق الخبر مشركى مكة فضحكوا وسخروا من رسول رب العالمين وتشفوا فيه!

لكن خطر محمد ﷺ قد استفحل، بعد ما انتشرت دعوته خارج مكة، فقد بايعته دوس وغِفار وبايعه الأنصار فى المدينة، وعما قريب سيمنعونه وينصرونه، ويظهرون دعوته، فيقضون بها على سلطة قريش ومكانتها. من أجل ذلك قررت قريش قتل محمد واجتمع سادتهم فى دار الندوة «حكومتهم المصغرة» ودبروا للجريمة ورسموا خطة الاغتيال، يندبون رجلاً من كل قبيلة فيتربصون برسول الله قدام داره، ينتظرونه حتى يخرج فينقضون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه فى القبائل، فتقبل بنو هاشم الدية[1].

---

(١) لاحظ أنهم لم يقتحموا على رسول الله داره، ويقتلوه فى فراشه، لكنهم انتظروه قدام الدار حتى يخرج فيقتلوه، وذلك لأنه لم يكن من عادات العرب فى الجاهلية أن يقتحموا على الناس البيوت!

- 5 -

عرف رسول الله بما يُدَبَّر له فى الظلام، فصحب عمه العباس (قبل إسلامه) فى لقاء سرى مع وفد الأنصار على تل العقبة، واستوثق منهم فى موضوع الهجرة إلى بلادهم، فأقسموا له أنهم سينصرونه ويحتضنون دعوته فى قلوبهم وبين أجفانهم.. فاطمئن العباس على مستقبل ابن أخيه.

رتب رسول الله موضوع الهجرة مع صديقه أبو بكر وابن عمه على بن أبى طالب ونفذت خطوات الهجرة بسرية تامة، وقد أعد أبو بكر راحلتين وخادمًا أمينًا ودليلاً عارفًا بمسالك الطريق، على أن يبقى عليًا يرد الأمانات إلى الناس، وينام فى فراش النبى، ثم يلحق به بعد ثلاثة أيام ومعه أهل البيت: أم كلثوم وفاطمة وسودة زوج الرسول الجديدة، أما رقية فقد هاجرت مع زوجها عثمان.

وكانت هجرته ﷺ يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول وكان لرسول الله ثلاثة وخمسون سنة.

وفى يثرب (المدينة) دار هجرته، وعاصمة دولته الجديدة، خطب رسول الله خطبة بليغة، ثم ركب ناقته، وأرخى لها الزمام، فجعلت لا تمر بدار من دور الأنصار إلا دعاه أهلها إلى النزول عندهم، ويقولون فى شوق: «هلم يا رسول الله، إلى العدد والعدة والمنعة» فيتحرج رسول الله من إثار حى على حى، أو بيت على بيت، فيقول معتذرًا، خلوا سبيلها فإنها مأمورة».

حتى إذا مر بحى عدى بن النجار، أخوال أبيه، تفجر حنينه، إلى أمه آمنة بنت وهب، وأبيه عبدالله الذى لم يره أبدًا، وداعبته ذكريات أليمة، عندما كان طفلاً فى السادسة من عمره وجاء مع أمه إلى يثرب لزيارة أخوال أبيه.

ويقطع شريط الذكريات، صياح أخوال أبيه، بنى عدى بن النجار قائلين: «هلم يا رسول الله إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة».

وتلبث رسول الله طويلاً يملأ عينيه من حيهم، مسترجعًا ذكريات رحلته الأولى إلى يثرب، عندما كان طفلاً فى أحضان أمه وحاضنته بركة وترقرقت عيناه بالدموع وهو يشير بيده ويقول: «ها هنا نزلت بى أمى آمنة بنت وهب.. وفى هذه الدار قبر أبى عبدالله» ثم نظر بملء عينيه إلى تل بنى عدى بن النجار، فرقّ له رقة شديدة وانفطر قلبه وهو يقول: «كنت ألعب مع أنيسة (جارية من الأنصار) على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالى، وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار».

وعاد الأنصار ينادونه: «هلم يا رسول الله، إلى العدد والعدة والمنعة». «ورسول الله يعتذر إليهم ويأمرهم أن يخلّوا سبيل ناقته، حتى إذا انتهت ناقته إلى مكان خلاء (مربد بنى عمرو) بركت ناقته ووضعت جرانها، ونزل عنها رسول الله، فاحتمل أبو أيوب الأنصارى رحله فأسرع ووضعه فى بيته، وعاد الأنصار يدعونه إلى النزول عندهم، فقال ﷺ، وهو يبتسم إلى أبى أيوب راضيًا: «المرء مع رحله»!

ونزل رسول الله على أبى أيوب خالد بن زيد بن كليب فى بنى غنيم بن النجار، ريثما يبنى حجراته ومسجده واشترى الأرض التى بركت فيها ناقته، وكانت لغلامين يتيمين فى المدينة، وأمر ببناء مسجده وحجراته فيها.

* * *

وفى اليوم التالى، خرج رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار، حتى جاءوا المقابر فجلسوا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فجلس إليه فناجاه طويلاً، ثم ارتفع صوته باكيًا، فبكى أصحابه لبكائه حتى علا نشيجهم، فأقبل إليهم رسول الله، فتلقاه عمر بن الخطاب وسأله:

- «ماذا أبكاك يا رسول الله، فقد أبكانا وأفزعنا؟!».

فأخذ بيد عمر ثم أومأ إلى أصحابه فأتوه فقال لهم: «أأفزعكم بكائى»؟!

قالوا: «نعم يارسول الله».

فقال ذلك مرتين أو ثلاث ثم قال: «إن القبر الذى رأيتمونى أناجيه، قبر أمى آمنة بنت وهب وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى».

* * *

نزل أصحاب رسول الله من المهاجرين، على إخوانهم الأنصار من الأوس والخزرج، فقد آخى رسول الله بينهم، فجعل لكل رجل من المهاجرين أخًا له من الأنصار. ودُوِّن عهد المؤاخاة فى كتاب النبى ﷺ إلى أهل المدينة، وأغلقت دور المهاجرين بمكة، وتركت مهجورة موحشة!

شارك رسول الله أصحابه فى بناء مسجده، ودعا جميع المسلمين من المهاجرين والأنصار إلى المشاركة فى البناء، ونادى منادٍ: «لئن قعدنا والنبى يعمل، لذاك منا العمل المضلل».

وكان نشيد العمل:

«اللهم لا خير إلا الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجرة»

لكن هناك أيدٍ ناعمة، من طبقة الأثرياء وكبار التجار، أرادوا الجلوس فى الظل، وتثاقلوا فى العمل، وحملوا على عمَّار بن ياسر وغيره من طبقة العبيد التى حررها الإسلام، ما لا يطيقون من حمل الأحجار وجلب الماء من بعيد، فانطلق عمار بن ياسر يشكو إلى النبى، وبكى بين يديه وهو يقول:

- «يا رسول الله، قتلونى، يحملون علىَّ ما لا يحملون»!

فنفض رسول الله ثوب عمار، ومسح التراب عن وجهه وقبله فى جبهته ثم قال له وهو يتأمله وقد ترقرت عينيه بالدموع:

- «إنهم لا يقتلونك، لكن تقتلك الفئة الباغية الناكبة عن الطريق!».

وأعطى رسول الله أصحابه درسًا جديدًا من دروس الإسلام، وضح لهم فيه أن هذا الدين يقوم أساسًا على المساواة والعدل والحرية، فلا ينظر الله إلى صوركم ولا أشكالكم، ولا أنسابكم ولا أموالكم، ولا مناصبكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. بل إن عمار بن ياسر وبلال ابن رباح والمقداد.. وغيرهم من طبقة العبيد التى حررها الإسلام قد ارتفع قدرها فى ميزان الله؛ رفعها سبقها وجهادها وعلمها وعبادتها وتقواها..

ورجع عمار بن ياسر من عند رسول الله راضيًا مرضيًا، مستبشرًا لأنه سيموت شهيدًا، والتهب حماسة فى العمل، الناس يحملون لبنة لبنة، وهو يحمل لبنتين لبنتين، ويغنى شعرًا حماسيًا رجزه صديقه على بن أبى طالب:

لا يستوى مَنْ يعمر المساجدا
يدأب منها قائمًا وقاعدًا
ومن يُرى من الغبار حائدًا.

وتم بناء المسجد، وحجرات النبى حوله، لكن البيت الجديد فى حاجة إلى زوجة، تكون له سكنًا، وتمسح عنه حزنه على خديجة، أم العيال، نعم، لقد تزوج الرسول قبيل هجرته، «تزوج سودة بنت زمعة» لكن زواجه بها كان مواساة لها فقط، وتشريفًا، وتضميدًا لجراحها، عندما رجعت من الحبشة بدون زوجها، وكانت مُسنّة، ومتردهة، وقد قنعت بأن تكون أمًا للمؤمنين فقط.

وكان رسول الله قد عقد على عائشة بنت صديقه أبى بكر قبيل هجرته (وكان المُطعم بن عدى قد خطبها قبل ذلك لابنه ثم فسخت الخطبة عندما أسلم أبو بكر وفارق دين أجداده) فعقد عليها رسول الله ﷺ ريثما تتهيأ الظروف حتى يدخل بها وينقلها إلى بيت الزوجية، وكانت

حدثة السن، فائقة الجمال، خفيفة اللحم، حمراء الشعر، شعر مجعد طويل وبراق، مزهرة اللون، بيضاء، مشربة بحمرة، ذات عينين واسعتين جميلتين، وأهم من ذلك كله رقتها ودلالها وتربيتها الرفيعة على يد أمها أم رومان وأبيها أبو بكر.

وانتقلت عائشة لبيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات حول المسجد، من اللبن وسعف النخيل، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير وعلى فتحة الباب ستار من شعر.

وكان طعام العرس، خبز شعير وتمر وماء وقدحًا من لبن، شرب الرسول بعضه وقدم إلى العروس فشربت منه!

واستقرت أمور المسلمين فى المدينة، فقد آثر الأنصار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كان بهم خصائصه، فزوجوهم بناتهم، واقتسموا معهم لقمة العيش، فازدهرت المدينة واخضرت الأرض وراجت التجارة.

وفى دار الهجرة أيضًا، وضعت رقية بنت رسول الله طفلها عبدالله بن عثمان بن عفان، فملأ عليها بيتها الجديد أُنسًا وفرحة، وأقبلت عليه تريد أن تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ولوعة مصابها فى أمها خديجة، وما ذاقت فى هجرتها من شجن الغربة، وحسبته أنها قد استوفت حظها من الآلام؛ لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد. مات «عبدالله» طفلاً، فترنحت رقية تحت وطأة الثكل المرير المضاعف، صريعة الحُمَّى!

- 6 -

عندما استقرت الأمور فى المدينة، تسابق الخُطاب يدقون باب النبى، يخطبون فاطمة، ورسول الله يردهم ردًا رقيقًا ويقول معتذرًا:

«لم ينزل فيها القضاء»!

وكبر حب على لفاطمة، حب كبير، حب متسامٍ، سمو ابن أبى طالب، حب عف، عفة تلاميذ محمد السابقين الأولين.

وكبر حب فاطمة لعلى، وهى ريحانة أبيها المعصومة، وسيدة نساء العالمين وهو علىّ ابن أبى طالب، ربيب الوحى، وابن عم الرسول، وكاتبه الأمين، رباه فى حجره، يشمه عرقه، ويغمره حبه، ويصلح له أمره.

كان علىّ ابن أبى طالب فى ريعان شبابه وفتوته، قوى البنية، عريض المنكبين ممتلئ الجسم، عظيم العينين، غزير الشعر[1]، عريض اللحية، ربعة فى الرجال، لا بالطويل ولا بالقصير، ضخم عضلة الذراع، ضخم عضلة الساق، إذا أمسك بخصمه كاد يحبس أنفاسه، فما صارع أحدًا إلا صرعه، يتدفق بيانه كالسيل الدافق، جذاب الحديث، قوى الحجة، فما جادل أحدًا إلا أسكته، وكان يسارع فى سيره، وقد انكفأ إلى الأمام، فإذا سار إلى الجهاد هرول، متشبهًا فى مشيته برسول الله ﷺ الذى جعله أسوته منذ نشأ.

وكانت فاطمة بنت رسول الله، أصغر بناته سنًا، وأكثرهن جمالاً وجلالاً وبهاء، فهى أشبه بأبيها، وكان أبوها أجمل من يوسف عليه السلام.. وهى جزء منه، يقول أبوها: «فاطمة بضعة منى»، «فاطمة ابنتى، مَنْ أحبها فقد أحبنى، ومن أبغضها فقد أبغضنى».

وكيف لا يحبها على، وهو أعرف الناس بسجاياها، وهى ما هى فى الصدق والكمال والعصمة الأبدية، والجمال الربانى المتناهى، فهى صورة من أبيها رسول رب العالمين.

وهى المرأة المتفوقة على بنات جنسها، فهى سيدتهم، بحكم الله تعالى وميثاقه، وهو الذى خلقها فسواها، ففضلها، وميزها على نساء العالمين، بعلمها وورعها وزهدها فى الدنيا وعبادتها.

---

(١) ولما تقدم فى السن دهمه الصلع.

وبدم النبى الذى يسرى فى عروقها، فهى ما هى من الصون والعفاف وطهارة الذيل، وعفة المئذر، وعفة الطرف، لا يميل بها هواها، ولا تقول إلا صدقًا، بل هى فى حصانة أبدية وطُهر.

وكانت عليها السلام، قوَّامة، متبتلة، ناسكة، زاهدة، مجاهدة، صابرة، مشاركة أبيها حياته، تصلح له أمره، وترعاه منذ ماتت أمها خديجة، لذلك كان يكنيها بأم أبيها.

ولا تحب الشهرة أو الظهور، ولا تتعرض لما لا يعنيها من أمور، حتى إنها كانت قريبة إلى الانطواء والعزلة، وهى تسمع أبوها ﷺ يقول: «طوبى لعبد نُوَّمة، يعرفه الله ولا يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم، تنجلى منهم كل فتنة ظلماء، ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفاء المرائين».

* * *

جلس على بين يدى رسول الله، يريد أن يخطب فاطمة، فيطول صمته، ويطول وجومه، ورسول الله يحس به ويعرف ما فى قلبه، ويريده أن يتكلم حتى يساعده، فيسأله بصوت حان: «ما حاجة ابن أبى طالب؟!».

فيدغدغ صوت رسول الله خوف على وخجله، فيقول:

- «ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ!»

فقال رسول الله بلا تردد ولا تفكير، وقبل أن يسأل فاطمة، وكأنه كان يعرف رأيها فى ابن عمها، قال مهللاً فى وجهه: «هى لك يا على!».

فخفق قلب على، وكبر وهلل من الفرحة، وحمد الله تعالى وشكر ابن عمه رسول رب العالمين.

* * *

لكنه أوى إلى فراشه مسهدًا مهمومًا، دامع العينين، يفكر فى أمر فاطمة فلم تكتحل عيناه بنومٍ طوال الليل، حتى إنه تمنى أنه لم يكلم ابن

عمه فيها. فقد كان على عظم مكانته، قليل المال، وكان رزقه من وظيفته كجندى من جنود الإسلام، ودخله من عطاء الجهاد وفيئه، هذا العطاء الذى كان الرسول يقسمه بينهم بالسوية.

إنه لا يملك ما يتزوجها به.. فى نفس الوقت تعيش أخواتها فى ثراء واسع، فهاهى زينب متزوجة من ابن خالتها أبو العاص بن الربيع وهو من أثرياء مكة. وتزوجت رقية وأم كلثوم واحدة بعد الأخرى بعثمان بن عفان.

أذن بلال لصلاة الفجر، وانطلق على للصلاة، ثم جلس بين يدى رسول الله، وبصوت مبحوح من السهر والأرق قال:

- «فداك أبى وأمى يا رسول الله، إنك لتعلم أنك أخذتنى من عمك أبو طالب، ومن فاطمة بنت أسد، وأنا صبى لا أعقل شيئًا، فهديتنى وأدبتنى وهذبتنى، فكنت أفضل من أبى طالب وفاطمة بنت أسد فى البر والشفقة بى، وإن الله عز وجل هدانى بك، واستنقذتنى مما كان عليه آبائى وأعمامى من الشرك وإنك يا رسول الله ذخرى ووسيلتى فى الدنيا والآخرة، وقد أحببت مع ما شد الله عز وجل من عضدى أن يكون لى بيت وزوجة أسكن إليها، وقد أتيتك خاطبًا ابنتك، فهل تزوجنى يا رسول الله؟».

ابتسم رسول الله ابتسامة مشرقة بالأمل وسأله برفق:

- «هل معك شىء تصدقها؟».

قال وهو يغض طرفه خجلاً: «لا يا رسول الله، والله ما تخفى عليك حالى، ولا شىء من أمرى، غير سيفى وناضحى»!

فقال رسول الله: «فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا؟!».

قال على: «تقصد درع الحطمية!؟ هى عندى يا رسول الله!».

فقال ﷺ: «فأعطها إياها»!

فانطلق على وجاء بالدرع، فأمره رسول الله أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها!! وأمر زوجته أم سلمة وعائشة أن تجهزا بيت فاطمة وعلى.

فكان جهازها - عليها السلام - رملاً لينًا مفروشًا فى أرضية الدار، وسريرًا من الخوص مشدودًا بالحبال ووسادتين حشوهما ليف وبساط صوف وجلد كبش، يقلب على صوفه فيصير فراشًا، وإناء سمن جاف يطبخ به، وقربة للماء، وجرة وكوزًا وبساطًا رائعًا من الصوف الأبيض أهداه لها أبوها ليلة عرسها!

وضجت مدينة رسول الله فرحة واحتفالاً، وباتت ليلة رائعة من ليالى العمر، وجاء حمزة بن عبدالمطلب بجملين عظيمين فذبحهما وأطعم الناس، وفاطمة مع أترابها، تغنين وترجزن، وأم سلمة تغنى والنسوة يرددن وراءها بنغمات جميلة:

سرن بعون الله جاراتى
واشكرنه فى كل حالات
واذكرن ما أنعم به رب العلا
من كشف مكروه وآفات
سرن مع خير نساء الورى
تفدى بعمات وخالات
يا بنت من فضله ذو العلا
بالوحى منه والرسالات.

ثم جاء رسول الله ببغلته الشَّهباء، وثنى عليها قطيفة وقال لابنته: «اركبى» وأمر سلمان الفارسى أن يقود بها، وقال للناس حينئذ: «سلمان منا أهل البيت».

ومشى الرسول وحمزة خلفها، ومعهم بنو هاشم جميعًا، فلم يتخلف منهم أحد، كانوا يهللون ويكبرون، مشهرين سيوفهم، تعبيرًا عن الفرحة والاحتفال.

أدخل رسول الله فاطمة بيتها، فبكت فاطمة على صدره، وبكى رسول الله، فهى المرة الأولى التى يفترق فيها الحبيبان، فاطمة وأبيها، فقد

كانت له كل شىء، كانت ترعاه بعد وفاة أمها خديجة، وتؤازره بحنانها وقلبها، وكان رسول الله يأنس بها وبأنفاسها فى البيت.

وفى طريق عودته إلى داره، أدركته رحمة خديجة، فاستعبر باكيًا، وصدره كاظم على غصة مؤلمة، وتمثلت صورتها أمامه وهى تحتضر، وتموت بين سحره ونحره، وهو يمسح عرقها ويقول باكيًا حزينًا:

«بالكره ما أجد منك يا خديجة، وقد يجعل الله فى الكره خيرًا» ويشيعها إلى مدفنها بالحجون بمكة، وينزل فى حفرتها ويوسدها بنفسه، ولم تكن صلاة الجنازة قد شُرعت.

ويدخل رسول الله غرفة فاطمة فيعلو نشيجه وهو يشم فراشها ويقبله. وعاد يحس بيتمه الذى لم يفارقه أبدًا، فقد حرك فراق فاطمة هذا الإحساس الكامن فى أعماقه، وبدأ رسول الله يحس بوجعه وشجونه، وعادت صورة أمه «آمنة بنت وهب» تتمثل أمام عينيه، عندما أخذته وهو طفل صغير فى السادسة من عمره، لتزيره قبر أبيه عبدالله الثاوى فى يثرب. وتزيره أخوال أبيه بنى عدى بن النجار، ورحلت معهما جاريتها «بركة».

وفى الطريق ألهبت أمه خياله بما حكت له من تاريخ عائلته المجيد، كانت تحكى له، لتهون عليه طول الطريق ووحشة الصحراء، وتعرفه تاريخه وجذوره، قالت له: «إن لأباك الذى ستزور قبره بعد قليل فى يثرب قصة عظيمة: فلم يكن لجدك عبدالمطلب إلا ولدًا واحدًا هو عمك الحارث، وكان لجدك الرفادة والسقاية بعد عمه المطلب «أخو جدك هاشم) وقد مات المطلب فى اليمن ومن قبل مات هاشم فى غزة، فكان جدك يسقى الحجيج فى حياض من جلد، ويجلب الماء فى هذه الحياض من آبار مكة البعيدة، فيجهده ذلك ويشق عليه!

وظل هذا حاله حتى زاره هاتف فى منامه، يهتف به ويأمره أن يحفر بئر زمزم، وحدد له المكان الذى سيحفر فيه، بين وثنى «إساف» و«نائلة»

(وكانت زمزم قد طمرت منذ زمن بعيد، ولم يعرف أحد مكانها فكانت ذكرى أقرب من الخيال) وفى الصباح خرج جدك وعمك يحملان فؤوسًا عظيمة للقيام بأعمال الحفر، فاعترضتهما قريش وسخرت منهما وأبت أن يحفرا بين أوثانهم، فأبلغهما جدك أنه أمر السماء، فسخروا منه وقالوا له: «ما أنت بكاهن ولا حارس لأوثاننا حتى يأتيك خبر السماء، بل إنك لم تعترف بهذه الأوثان، ولم نرك سجدت لها مرة واحدة»!

فأصر جدك، وحفر وحده مع عمك الحارث، أملاً فى العثور على البئر العظيمة التى طمرتها جُرْهُمْ منذ زمن بعيد عندما أُخرجت من مكة. وذات صباح مشوق وقفت قريش ذاهلة، خاشعة الأبصار، تنظر إلى جدك والمياه تتفجر حوله، تبلل ثيابه وجبينه وهو يهلل ويشرب ويسقى، ويرش بها الأرض والهواء! فقالت قريش: «لقد بررت بقومك يا عبد المطلب، وأنبطت لهم هذا الماء يستقون منه، إذ ضنت عليهم الينابيع، فوصلتك رحمك، لتعرفن قريش لك هذه اليد».

ومن أجل الذرية والعزوة، تزوج جدك فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، أشرف وأذكى بنات قريش، فولدت له: أبو طالب، والزبير وأبيك عبدالله، وأم حكيم البيضاء (توأمة أبيك) وبرَّة وأميمة وأروى. ثم أنجب من امرأة أخرى حَجْل وضِرار والمعوّم والعباس وأبو لهب وحمزة.. وعاتكة وصفية وأروى.

ثم جاءه أمر السماء يهتف به فى منامه، لكنه هذه المرة يأمره بشىء رهيب، لم تعهده العرب، منذ قصة أبيهم إسماعيل مع أبيه إبراهيم. كان يأمره بذبح ولده الأصغر وأحب أولاده «عبدالله» زينة شباب قريش، وكان عمره حينئذ سبعة عشر عامًا، لكن جدك امتثل لأمر الله، وخرج بأبيك عبدالله يسوقه إلى الذبح فى الكعبة، فتصدت له قريش، لكنه أصر، وأمسك شفرته ووضعها على عنق أبيك، وأبوك مستسلمًا خاشعًا، لم تصدر عنه أنَّة ولا آهة، ولم يتنفس باعتراض أو ضجر!

فلما مست الشفرة منجزه، وهم جدك بتحريك الشفرة، صرخت عماتك صرخة هزت دروب مكة، ومازالوا به حتى فكر فى الفداء، ففداه بأعظم فدية فى التاريخ العربى، مائة جمل أوارك، فكان أول من سن دية النفس مائة ناقة، فجرت عادة فى العرب، وكانت دية النفس حينئذ عشرة من الإبل.

وفى يوم الفداء الأعظم، الذى هز أم القرى وما حولها، خطبنى أبوك ودخل بى فى نفس اليوم، وأقيمت الأفراح ابتهاجًا بفداء أبيك الذى هزت قصته قلوب الناس تعلقًا وحبًا، وترك جدك المائة جمل المذبوحة فى بطحاء مكة، لا يصد عنها إنسان ولا طير ولا حيوان.

وليلة دخل بى أبوك، رأيت فى منامى كأن شعاعًا من النور يشع من حنايای فيضىء الدنيا من حولى وسمعت هاتفًا يبشرنى بأننى حملت بسيد البشر.

ثم ودعنى عبدالله ورحل مع قافلة قريش إلى الشام، ومازال خضاب العرس مرسومًا فى يدىّ، لكنه السعى وراء الرزق، يدفع الرجل أحيانًا إلى مفارقة وطنه وأحبابه، وفى طريق الإياب، مرض أبوك عبدالله مرضًا خلفه عن القافلة، وأعجزه عن مواصلة المسير إلى مكة فنزل على أخوال أبيه «بنى عدى بن النجار» فى يثرب ومرض عندهم، ولم يلبث إلا قليلا حتى مات ودفن هناك.

عادت قافلة قريش ولم يعد أبوك، كنت أقف فى انتظاره أنا وجدك عبدالمطلب، وكلٌ يعانق حبيبه بعد طول فراق وسفر، وأنا منزوية أعانق ذراع جدك الحنون، أكفكف دموعى، فعاد بى إلى البيت مكروبًا مقطع القلب، فسألته فى قنوط: «لماذا كان الفداء إذن مادام القدر يقف له بالمرصاد؟!» فتحجرت الكلمات على شفتى جدك، كما تحجرت دموعه، وبت ليلتى حزينة لا أصدق ما حدث، فأنزل الله سكينته علىّ، وربط على قلبى، لأكون من المؤمنين وثبتنى بما أرانى من رؤى صادقة فى منامى.

فعرفت حينئذ أنها إرادة الله، وأن الله لم يفد أباك من الذبح ثم يقبض روحه بعدها بشهرين اعتباطًا أو عبثًا، إنما هناك دور عظيم خلقه الله تعالى لأجله، وحكمة بالغة!

ومن أجلك صبرت، وتقويت، وتحملت آلام الترمل وأنا فى زهرة شبابى.. عشت راضية مرضية قانعة بك يا بنى ومن أجلك أيضًا لم أفارق جدك عبدالمطلب، ولم أفارق بيت أبيك عبدالله وأعود إلى بيت أبى وهب، فقد وهبت نفسى لك، بعدما عرفت أن السماء اختارتنى أنا، من دون بنات حواء، لأحمل بسيد البشر.

ويوم ولادتك، أنقذ الله تعالى الكعبة وأنقذ قريشًا من جيش أبرهة الحبشى الغشوم، الذى أقبل على بلادنا غازيًا، يركبون فيلاً عظيمة. جاءوا لهدم بيت الله الحرام، وكان جدك شيخ قريش، فأمرهم أن يختفوا فى شعاب مكة وتلالها، لأنهم إذا واجهوا هذا الجيش العظيم يكون فيه هلاكهم جميعًا، وواجه جدك قائد جيش المعتدين بمفرده ليعرف نواياه، وعندما عرف أنه جاء لهدم الكعبة، ولا حاجة له بقتل أحد.. قال له جدك فى ثقة متناهية وإيمان راسخ: «أما البيت فله رب يحميه» ثم أخذ جدك بحلقتى باب الكعبة وناجى ربه بأعلى صوته متضرعًا: «لا هُمَّ إن المرء يمنع رحله، فامنع حِلالكَ. لا يغلبن صليبهم ومِحالهم، غدوًا محالك. إن كنت تاركهم وكعبتنا، فأمرٌ ما بدا لك».

كان جدك مسلمًا، على دين إبراهيم عليه السلام، فقد دعا الله تعالى، ولم يدع واحدًا من آلهة العرب الثلاثمائة والستون المحيطة بالكعبة!.

قطعت أم المؤمنين سلمة شريط الذكريات، ومسحت دموع زوجها الحنون، فمازال طيف أمه آمنة بنت وهب يضمه ضمًا ويحتويه احتواء، وأمسكت بيده معانقة محبة، وأخذته إلى حجرتها.

- 7 -

عرض المسلمون لقافلة قريش وهى جائية من الشام، فطردها أبو سفيان وغير اتجاه مسيرها، حتى لا يستولى عليها المسلمون.. ثم أرسل إلى قريش يستنفرها ويستحثها على قتال المسلمين فى المدينة!

شاور رسول الله أصحابه، فأجمعوا أن يخرجوا لملاقاة المشركين حتى أدنى ماء منهم، فيعسكرون حوله، ثم يحفرون وراءه ويبنون حوضًا فيملأونه بالماء، يشربون ولا يشرب الأعداء المعتدين.

وعسكر رسول الله عند ماء بدر ومعه ثلاثمائة مقاتل من جند الإسلام ومعهم من الخيل ثلاثة أفراس فقط! أما جيش قريش الزاحف من مكة بكامل عدته، فكان قوامه ألف مقاتل كاملو العدة والسلاح، ومعهم مائة فرس مدربة على القتال!

أبصر رسول الله قريش تتوعده، مندفعة نحوه، هادرة بزئير الحقد والوعيد، فرفع وجهه إلى السماء وابتهل إلى الله عز وجل قائلاً: «اللهم إن هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى».

لقد خرج المشركون للقتال بطرًا ورئاء الناس، وإمعانًا فى الظلم والعدوان وتأمينًا لقوافلهم التجارية إلى الشام، وخرج المسلمون دفاعًا عن عقيدة آمنوا أنها الحق من ربهم، وغضبًا لحرمات لا يحل أن تنتهك، ورفضًا لما سامتهم الوثنية القرشية الغليظة من أذى وفتنة واضطهاد وحصار!

ومر ابن مسعود بأبى جهل حين أمر رسول الله أن يلتمس فى القتلى، فوجده بآخر رمق، فوضع رجْلَه على عنقه، ثم قال له:

- هل أخزاك الله يا عدو الله!

فقال أبو جهل وهو ينازع:

- وبماذا أخزانى؟! هل زاد على سيد قتله قومه!؟

فاحتز ابن مسعود رأسه ونادى بأعلى صوته:

– هذا رأس عدو الله أبى جهل.

فسمعه رسول الله فأخذ نفسًا عميقًا وقال: الحمد لله!

وعادت فلول المشركين إلى مكة، تجر معها أذيال الهزيمة المنكرة، والعار والذل. كان قتلاهم سبعون رجلاً من صناديد قريش وسادتها، وستة وستون أسيرًا. أما خسائر المسلمون يوم بدر فأربعة عشر شهيدًا، دونت أسماؤهم فى سجل البدريين، وهم طبقة عليا من الصحابة.

وفى جوف الليل سُمع رسول الله يقول بأعلى صوته: «يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل (فعدد من كان معهم فى القليب) بئس عشيرة النبى لنبيكم!

كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس ثم قال:

«هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فإنى قد وجدت ما وعد ربى حقًا!»

فقال المسلمون المنتصرون: «يا رسول الله، أتنادى قومًا قد جَيّفوا؟!».

قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى!»

ونظر رسول الله فى وجه أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك دخلك من شأن أبيك شىء؟!»

فقال أبو حذيفة بنبرة حزينة: «لا والله يا نبى الله، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، حزننى ذلك!».

* * *

ودخل رسول الله المدينة مع أصحابه، تعانقهم بهجة النصر المبين، وأتى رسول الله المسجد، وصعد المنبر، وأعلن بنصر المسلمين العظيم على المشركين حول ماء بدر، وذكر أسماء زعماء الكفر الذين قتلوا هناك.

وعندما خرج من المسجد، وقبل أن يذهب إلى بيته، استقبله الناس باكين واجمين، ورآه عثمان بن عفان من بعيد، فأقبل عليه، وارتمى على صدره وأخذ ينتحب انتحابًا، ويقول: «ماتت رقية، ماتت رقية يا رسول الله!».

وكان عثمان قد أقام بجوار رقية زوجته، يمرِّضُها ويرعاها، حيث كانت صريعة الحُمّى، وفى سكرات الموت، حتى إذا انتهى إلى سمعه صوت داعى الرسول يؤذن أن حى على الجهاد ويستنفر المهاجرين والأنصار للدفاع عن المدينة من غزو المعتدين. وود عثمان حينئذ لو لبى الداعى الكريم، لكن لم يطاوعه أن يفارق حبيبته وزوجته وبنت رسول الله وهى تعانى ما يشبه سكرات الموت، فتخلف عن شهود موقعة بدر، وراح يشهد معركة الموت فى أعز ما له، وأحب الناس إليه!

وجاء الأب الثكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والأسى ثم انثنى فى رفق نحو ابنته «فاطمة» التى أكبت على مضجع أختها تبكى، فجعل ﷺ يمسح دموعها بطرف ثوبه، وهنا لم تتمالك النساء أنفسهم أمام المشهد الفاجع، فانسحبن خارج الغرفة مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصفن فى حضرة الرسول من تجمل وتصبر.

وهاج نحيبهن عمر بن الخطاب فزجرهن فى عنف وقسوة محاولاً أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينة ووقار، لكن الرسول كفَّه عنهن قائلا: «مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان».

وصلى الأب المفجوع على ابنته الحبيبة، وشيعت يثرب جثمان بنت رسول الله ذات الهجرتين، حتى وريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء بدر.. وانكب رسول الله على قبرها يبكى، وأصحابه يواسونه ويقولون له: «كفى بكاءً على القبر يارسول الله...»!

* * *

وكان فى أسارى بدر «أبو العاص بن الربيع» زوج ابنته زينب؛ وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان الإسلام قد فرَّق بينه وبين زينب بنت رسول الله، لأنه بقى على شركه، إلا أن رسول الله كان لا يقدر على أن يفرق بينهما، فأقامت زينب معه على شركة حتى هاجر أبوها إلى يثرب، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيها أبو العاص فأصيب فى أسارى بدر.

فلما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، بعثت زينب فى فداء زوجها أبو العاص وبعثت فيه بعقد ذهب لها، كانت أمها خديجة أدخلتها به على أبى العاص حين تزوج بها، فلما رآه رسول الله عرفه، ورق له رقة شديدة وقال لأصحابه: إن رأيتم أن تلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا!

قالوا فى نفس واحد: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها.

وأطلق رسول الله أبو العاص، بعدما أخذ عليه عهدًا بأن يخلى سبيل زينب إليه (فلقد فرق الإسلام بينهما لأنها مسلمة وهو كافر). وبعث رسول الله زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال لهما:

- كونا ببطن مكة يأجج، حتى تمر بكما زينب فتصحباها، حتى تأتيانى بها.

فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحاق بأبيها، فخرجت فى وضح النهار. قدم لها حموها كنانة بن الربيع، (أخو زوجها) بعيرًا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا يقود بها، وهى فى هودج لها. ففاظ ذلك رجال قريش واعتبروه تحديًا لهم، فدماء قتلاهم فى بدر لم تجف بعد، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود فروعها بالرمح وهى فى هودجها وكانت حاملاً فطرحت جنينها وبقيت تنزف على الرمال!

فعاد بها حموها إلى البيت، حتى هدأ صوت قريش، وخرج بها ليلاً، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه الأنصارى، فقدما بها على رسول الله ﷺ، فأقامت زينب فى المدينة مع أبيها وأقام أبو العاص بمكة، قد فرق الإسلام بينهما.

* * *

وتزوجت أم كلثوم بنت رسول الله من عثمان بن عفان، وتم عقد زواجها من عثمان على مثل زواج أختها الراحلة رقية وعلى مثل صحبتها، وخرجت إلى بيت زوجها وعليها ثوب العرس شبيه بالذى دخلت به رقية على عثمان.

وبعث النبى معها أم عياش، خادم النبى، كما بعثها مع أختها من قبل، فلما شارفت البيت الجديد أحست كأن طيفًا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى يقظة أو منام. فهمست فى شجن: «لم يبق يا رقية إلا أن ألحق بك حيث ترقدين فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا»!

وتضع فاطمة بنت رسول الله ولدًا ذكيًا، فى النصف من رمضان سنة ثلاثة من الهجرة، فينادى رسول الله أسماء بنت عميس مهللاً من الفرحة:

«يا أسماء هاتنى ابنى» فدفعته إليه، فشاله بيديه، وأذَّن فى أذنه اليمنى، وأقام الصلاة فى أذنه اليسرى ثم التفت إلى علىّ وسأله:

«هل سميت الوليد المبارك» فقال على: «ما كنت لأسبقك يا رسول الله» وما هى إلا لحظات، حتى تنزَّل الوحى من السماء يناجى رسول الله قائلاً:

«يارسول الله، سَمِه حسنًا». ولم يكن الاسم معروفًا فى الجاهلية ثم عق عنه رسول الله بكبشين أملحين، وأعطى القابلة فخذًا ودينارًا، وقال لابنته فاطمة: «يا فاطمة» احلقى رأسه، وتصدقى بزنة شعره فضة»،

وفى اليوم السابع أجرى له عملية الختان.

وفى نفس العام، علقت فاطمة بطفلها الثانى، وسماه رسول الله حسينًا، وفعل معه مثلما فعل مع الحسن.

- 8 -

خرجت قريش، يسوقها أبو سفيان، بحدها وحديدها وأحابيشها، ومن معهم من بنى كنانة وأهل تهامة، لتثأر لقتلاها فى بدر، وخرجت معهم هند بنت عتبة (زوج أبو سفيان) تحرِّض المشركين فى قصيدة مطلعها:

أفى السلم أعيارًا جفاء وغلظة

وفى الحرب أشباه النساء العوارك!

وأخرجت هند نساء قريش وجواريها الجميلات، فى كامل زينتهن، مكشوفات الصدور والسوق، متعطرات، متشوقات للمضاجعات، بعد الثأر من محمد وصحبه.

يرددن بصوت تسكره الشهوة:

إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

وإن تدبروا نفارق

فراق غير وامق!!

وخرج معها «وحشى» هذا العبد الحبشى المتوحش، الذى لا تخطئ حربته أبدًا، وأغرته بكل ما يغرى به عبد مملوك، مقابل قتل حمزة أو على. لتثأر لابنها البكر وأمها وأختها وعمها الذين قتلهم المسلمون فى بدر.

وفى الطريق بين مكة والمدينة نبشت هند قبر «آمنة بنت وهب» أم رسول الله، وعبثت بعظامها، عسى أن يشفى شيطانها ما يحرقها من

حقد وكره لهذا النبى الذى وترها ويحاول القضاء على دولتها، دولة الكفر والطغيان، ودولة أبى سفيان!

وتعبأ رسول الله للدفاع فى سبعمائة رجل حاسرين (بلا دروع) وليس معهم إلا فرسين، فرس لرسول الله، وفرس لأبى دُرَّة، وكان جيش قريش قوامه ثلاثة آلاف (مدرعون وبكامل عدتهم) ومعهم مائتا فرس ومائة جمل مدرب على الحرب..

التحم الجمعان فى معركة حامية الوطيس، وأبو سفيان يحمل اللات والعُزى فى يده، وينادى بأعلى صوته: أُعلُ هُبَل.. أعل هبل»!

وأصيب المسلمون بهزيمة موجعة، ثلث قتيل، وثلث جريح، وثلث مهزوم، مكسور، منهك!!

وكسرت رباعية رسول الله السفلى، وشقت شفته، وكلم فى جبينه وجبهته فى أصول شعره. كان الدم يسيل على وجهه، فجعل يمسح الدم ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم»؟!

وقتل وحشى حمزة بحربته، فأسرعت هند إليه، فبقرت بطنه وأخرجت كبده، وأخذت تعصرها بيدها وتلوكها بفمها، وتلعق الدم متشفية وهى ترقص على جثته، فجزع رسول الله وتألم، وقال لأصحابه:

- «أأكلت شيئًا؟!».

قالوا: «لا».

قال: «ما كان الله ليدخل حمزة النار!!»

وأقبل أبو سفيان يضرب فى شدق حمزة، يزج الرمح ويقول:

- «ذق جزاء فعلك يا عاق!».

فيراه الحليس بن زياد سيد بنى كنانة، فيقول:

- هذا سيد قريش، يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا!!».

فأسكته أبو سفيان وقال له: «ويحك!! أكتمها عنى، فإنها كانت ذلة!».

وارتفعت أصوات المشركين فى طريق الإياب، بحذاء شاعرهم عبد

الله بن الزبعرى (وهو يومئذ على دينهم) رسالة إلى حسان بن ثابت شاعر الأنصار:

يا غراب البين أسمعت فقل	إنما تنبئ شيئًا قد فُعلْ
أبلغا حسان منى آية	فقريض الشعر يشفى ذا الغُلل
كم قتلنا من كريم سيد	ما جد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخى ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت بقباء بركها	واستحر القتل فى عبد الأشل
فقتلنا الضعف من أطرافهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل.

ويرد عليه حسان بن ثابت، فى قصيدة طويلة جاء فيها:

ذهبت يا ابن الزبعرى وقعة	كان منا الفضل فيها لوعدل
ولقد نلتم ونلنا منكم	وكذلك الحرب أحيانًا دُول

وخرج رسول الله يلتمس حمزة بين جثث القتلى، فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده، ومُثِّل به شر مُثْلَة، فتحجرت الدموع فى مآقيه وقال: «لولا تحزن صفية بنت عبدالمطلب، أو تكون سنة من بعدى، لتركته حتى يكون فى حواصل الطير وأجواف السباع!».

ثم انصرف رسول الله راجعًا إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش - فنعى لها أخوها عبدالله فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها بمكان» لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

ثم مر بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنواح على القتلى فذرفت عيناه فبكى، ثم قال حزينًا:

«لكن حمزة لا بواكى له!»[1].

---

(١) يعنى.. حتى يأخذ بثأره.

ثم مر بامرأة من بنى دينار. وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله بأحد، فلما نعوا لها قالت: «فما فعل رسول الله ﷺ؟!».

قالوا: «خيرًا.. بحمد الله كما تحبين».

قالت: «أرينه حتى أنظر إليه».

فأشير لها إليه حتى إذا رأته أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

- «الحمد لله، كل مصيبة بعدك صغيرة!!».

وكانت فاطمة بنت رسول الله تقود فريقًا طبيًا من النساء، يشاركن الرجال الجهاد، فيسقين الجند، ويطببن الجرحى، ويحمسن الرجال على الثبات فى وجه العدو المعتدى.

وهى التى داوت جرح أبيها ﷺ. فكانت تغسل الجرح وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمحجن، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها والصقتها فاستمسك الدم.

- 9 -

كان أكثر ما أوجد صدور اليهود على الإسلام أنه أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة (الأوس والخزرج) بعدما عملت أجيال من السلالة اليهودية على إضرامها بوقود الدس والفتنة والتواطؤ.

ومضى اليهود يحاربون الإسلام من أول يوم له فى المدينة، يحاربونه بالجدل والفتنة، والتشكيك، والكذب، وإطلاق الإشاعات المغرضة، وجاء يوم بدر فنكثوا عهدهم مع رسول الله، وكان رسول الله قد عاهدهم وعقد معهم اتفاقية دفاع مشترك؛ لكنهم لم يكونوا مع المسلمين على من دَهَمَ المدينة، بل تربصوا بالمسلمين الهزيمة.

فلما انتصر المسلمون وخاب ظن اليهود، تجاسر بنو قينقاع، (صاغة المدينة) على معاملة المسلمين بالغدر، فجمعهم رسول الله وحذرهم من مثل ما نزل بقريش فقالوا ساخرين مستكبرين: «يا محمد، لا يغرنك

أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس» فأجلاهم رسول الله عن المدينة، وأخذوا معهم متاعهم وأموالهم، ما عدا أسلحتهم!

وعندما دهمت قريش المدينة بثلاثة آلاف مقاتل، وأوقعوا بالمسلمين هزيمة موجعة، انتقامًا لقتلاهم فى بدر - طمع يهود بنى النضير فى رسول الإسلام، فتآمروا على قتله، ودبروا عدة محاولات لاغتياله، فأنجاه الله تعالى منها.

فحاصرهم رسول الله ست ليال، فاعتصموا منه أول الأمر بحصونهم ثم نزلوا على حكم الله ورسوله، فأجلاهم المسلمون عن المدينة فى أموالهم ومتاعهم، إلا السلاح[1].

فلما لم تتكسر شوكة المسلمين بعد أُحد الموجعة، تسلل رهط من اليهود إلى مكة، فاستنفروا قريشًا لقتال الإسلام ونبيه، وحزبوا لهذا الأحزاب من غطفان ومزارة، وعلم رسول الله بهجوم الأحزاب الكاسح على مدينته، فأشار «سلمان الفارسى» مولى رسول الله ﷺ، بحفر خندق حول المدينة، وأمر النبى بنقل النساء إلى الحصون خوفًا عليهن من يهود بنى قريظة، الذين خانوا العهد ونقضوا تحالفهم مع جيرانهم المسلمين، وتحالفوا مع الأحزاب، وقالوا: «لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد؟» وصمموا ومضوا فى الخيانة للقضاء على الإسلام ونبيه.

وعندما أيد الله تعالى رسوله بنصره، وهزم الأحزاب، فأرسل عليهم ريحًا عاصفة فى برد قارس، فلم تدع للأحزاب الذين كانوا يحاصرون المدينة نارًا إلا أطفأتها، ولا قدرًا إلا قلبتها. فتفرقوا مذعورين طرائق قددًا. وهلل المسلمون وهم يشاهدون الأحزاب تنسحب خائبة، وهلل رسول الله وقال:

«الحمد لله وحده، نصر عبده، وأيده بجنده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «من الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

---

(١) وفيهم نزلت سورة الحشر كاملة.

ورجع رسول الله بأصحابه ظهرًا، فما كادوا ينفضون عنهم غبار المعركة الباسلة، حتى أذن فيهم مؤذن رسول الله: «من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة».

كم مرة نقضوا العهد والميثاق، وأشهروا السلاح، ورسول الله يعفو عنهم، ومن قبل عفا عن بنى النضير وبنى قينقاع، وأجلاهم عن المدينة سالمين، بأموالهم ومتاعهم وذراريهم ونسائهم، لكنه رآهم خرجوا ليجمعوا صفوفهم، ويحشدوا له الحشود، فجمعوا له الأحزاب ليستأصلوا شأفته من الأرض!

فأراد رسول الله ﷺ أن يعاقبهم هذه المرة على خيانتهم وأراد أن يجعل «بنى قريظة» عبرة ومثلاً لكل الخونة، فحكم فيهم بحكم الله ورسوله، فأعطى رسول الله رايته لعلى بن أبى طالب، ونهض معه من المسلمين من نهض، فسقط الحصن، واستأسر من فيه، وغنم المسلمون مغانم كثيرة.

* * *

وعندما رجع رسول الله من خيبر ظافرًا، تلقاه جعفر بن أبى طالب معانقًا عناقًا حارًا، وقبَّل ما بين عينيه، وترقرقت عينا رسول الله من شدة الفرحة بعودة ابن عمه جعفر من الحبشة سالمًا[1].

فقال له رسول الله: «ما أدرى بأيهما أفرح.. بقدومك يا جعفر أم بفتح خيبر».

وآخى رسول الله بين جعفر وبين معاذ بن جبل.

وبدأ جعفر يحس بالاستقرار والراحة فى المدينة، بعد غربة طويلة، خمسة عشر عامًا، قضاها مهاجرًا إلى الله تعالى فى أرض الحبشة غريبًا عن وطنه، رزق خلالها من أسماء بنت عميس بعبدالرحمن ومحمد وعون.

---

(١) وكان جعفر بن أبى طالب أميرًا للمهاجرين إلى الحبشة، وهم الذين هاجروا فرارًا بدينهم من فتنة وبطش مشركى مكة.. وبعدما هاجر المسلمون إلى المدينة، وعندما استقرت الأمور، وتأسست الدولة الإسلامية فى عاصمتها الجديدة - بعث رسول الله إلى النجاشى عمرو بن أمية يطلب منه إعادة المسلمين إلى رسول الله، ويشكر له حسن ضيافته وحمايته لأصحابه.

لكنه لم يمكث طويلاً فى المدينة، ولم يسترح بعد من عناء السفر المضنى، فإذا به ينطلق ملبيًا دعوة رسول الله إلى الجهاد، فودع زوجته وأولاده، وخرج مع الجيش الذى جهزه رسول الله لتأديب الغساسنة الذين قتلوا رسوله وأعلنوا الحرب عليه!

وكان رسول الله ﷺ ملتزمًا بدعوة الناس كافة إلى الإسلام، فدعا الفرس والروم لعبادة الله وحده، ولكن كسرى مزق كتابه وتوعده، والغساسنة قتلوا مبعوث الرسول وسخروا ممن أرسله (والغساسنة هى القبائل العربية الموالية للروم)[1]. وتبعًا لذلك سار جيش المسلمين بقيادة زيد بن حارثة لحرب الغساسنة، ولكن الروم انضموا لجيش أتباعهم الغساسنة، وأصبح جيش المسلمين زمرة قليلة العدد والعدة بالنسبة إلى جيش صاخب.

وفى هذه المعركة سقط القائد زيد بن حارثة، فالقائد الثانى جعفر ابن أبى طالب، فالقائد الثالث عبدالله بن رواحة، واستطاع خالد بن الوليد الذى ولاه الجيش قيادته عقب ذلك أن يحتال ليفر بالمسلمين من لقاء غير متكافئ.

وهذه النتيجة زادت المشكلة حرجًا، فلم تعد المسألة قصاصًا لمبعوث الرسول للغساسنة فقط ولكن للقصاص من الروم الذين ناصروا للغساسنة وقتلوا فى المعركة مجموعة من كبار الصحابة. وهذه النتيجة جعلت المسلمين يتأكدون أن المعركة الحقيقية هى ضد الروم والفرس الذين بدأوا يحشدون الشحود ويعدون لقتال الدولة الإسلامية فى مهدها، وقبل استفحال خطرها!

* * *

دخل رسول الله بيت ابن عمته جعفر بن أبى طالب حزينًا مكروبًا وكانت أسماء تحمم عيالها وتعطرهم، فاستقبلت رسول الله فى لهفة،

---

(١) هناك اتفاق عالمى على أن قتل المبعوث معناه العدوان على من أرسله وبالتالى إعلان الحرب.

فقال لها: «إئتيني ببني جعفر».

فأتته بهم، فشمهم وقبلهم حتى ذرفت عيناه، فقالت له وهي تنهض على قدميها مذعورة:

- «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟! أستشهد جعفر؟!».

فبكى رسول الله ﷺ حتى خضبت لحيته، فصرخت أسماء صرخة مبحوحة، شقت صدرها شقًا، وخرت على الأرض لا تحملها قدميها!

فاجتمعت نسوة بني هاشم تبكين سيد الشهداء، وفتى بني هاشم، فقال رسول الله للنسوة: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بما أصابهم».

وارتمى عليّ على صدر رسول الله يبكى أخيه جعفر، كما لم يبك من قبل فواساه رسول الله قائلاً: «لقد رأيته في الجنة له جناحان..».

وسمع رسول الله أسماء تتحدث عن مصابها ويُتْم أولادها فزرفت عيناه وقال لها:

- «العيلة تخافين عليهم يا أسماء، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة».

وأراد رسول الله أن يسرى عن عليّ ويخرجه من حزنه الذى أصاب بنى هاشم والمسلمين جميعًا فبعثه إلى اليمن بكتابٍ يقرأه عليهم، يحاورهم ويقنعهم بالإسلام، الدين العالمى الجديد، الذى يساوى بين الناس، فالجميع من آدم، وآدم مخلوق من تراب، الجميع متساوون كأسنان المشط، يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، يضع لهم دستورًا ومبادئ عظيمة يلتزمون بها فيصيرون خير أمة أُخرجت للناس.. يعبدون إلهًا واحدًا لا إله إلا هو خالق كل شيء!

وأرسل عليّ إلى رسول الله ينبئه بخبر إسلام همدان وأهل اليمن جميعًا، فلما قرأ رسول الله كتاب عليّ، خرَّ ساجدًا ثم جلس وقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»!

وأقبل عليّ يخطب بنت عمرو بن هشام بن المغيرة (أبى جهل) فقالوا له: «والله لا نزوجك حتى نستأذن رسول الله».

وجاء على يستأذن رسول الله، فغضب غضبًا شديدًا، وعرق وجهه وأغلظ عليه القول، وقال له:

- «والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد».

ثم قال: «إنما فاطمة ابنتى، وبضعة منى، وأنا أكره أن تحزن أو تغضب فإذا أردت أن تتزوج فأنا لا أحرم حلالاً، ولا أحل حرامًا، لكن بعد أن تطلق فاطمة».

فبكى على حتى علا نشيجه، وقال نادمًا:

- «فلن آتى شيئًا أساءك أو أساء فاطمة يا رسول الله».

فقد خاب ظن علىّ، لم يحسب أن هذا الأمر يمكن أن يغضب رسول الله أو يغضب فاطمة، فالتعدد سُنة من سنن العرب قبل الإسلام، وجاء الإسلام فحددها بأربعة فقط، والمسلمون جميعًا كانوا يعددون حبًا فى الذرية والمتعة الحلال.

لكن الموضوع هنا مختلف تمامًا، فليست فاطمة كأحد النساء، فبنات النبى لهن خصوصية، فيحرم الزواج عليهن والإيتاء لهن بضرة، لأنهن بنات الرسول الكاملات.. وعلى هذا سار عثمان بن عفان، فلم يتزوج على رقية، وعندما ماتت رقية وتزوج أم كلثوم لم يتزوج عليها طوال حياتها، وكذلك فهم أبو العاص بن الربيع ووفى، فلم يتزوج على زينب. بل إنه لم يتزوج بعد موتها وظل على ذكراها يبكيها حتى مات بعدها بقليل.

ثم إن رسول الله شرح له أنه لا يجوز له أن يضع بنت رسول الله وبنت عدو الله فى كفة واحدة، ضرّتين عند رجل واحد، ثم إن هذا الزواج كان حتمًا سيغضب فاطمة، وإغضاب فاطمة حرام فى شرع الله سبحانه وتعالى.

- 10 -

أقام أبو العاص بن الربيع فى مكة، وأقامت زينب مع أبيها رسول الله فى المدينة، بعدما فصل الإسلام بينهما، وبقيت زينب تعيش مع أبيها

وعندها أمل قوى بعودة أبو العاص إليها مسلمًا، فيلم الشمل، ويجبر الكسر، ويعوضها سنوات الهجر والحرمان، ويعوض ولديه علىّ وأمامة حنان الأب.

خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام (وكان رجلاً مأمونًا بمال له، وأموال رجال من قريش أبضعوها معه) فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه، وأعجزهم هربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت جنح الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله، فاستجار بها، فأجارته فى طلب ماله.. فلما خرج رسول الله إلى صلاة الصبح، صرخت زينب من صُفّة النساء وقالت بأعلى صوتها: «أيها الناس، إنى أجرت أبا العاص بن الربيع».

وبلغ صوتها سمع النبى، ومعه المسلمون بالمسجد، فالتفت إليهم وقال:

- «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟».

قالوا: «نعم يا رسول الله».

فقال: «أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم».

ثم أضاف قائلاً: «يجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت».

وانصرف رسول الله حتى دخل على ابنته وعندها أبو العاص بن الربيع، وهو على شركه، والإسلام قد فصل بينه وبين زينب، فقامت زينب إلى أبيها فتناولت يديه تقبلهما وتقبله بين عينيه ودموعها تغرق حلقها، وقالت: «يارسول الله، إن أبا العاص إنّ قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد».

فتأملها رسول الله طويلاً ورق لها رقة شديدة، ثم تأمل أبو العاص فرق له رقة شديدة، ثم تأمل الصغيرين علىّ وأُمامة فرق لهما رقة شديدة.. فقال لها:

- «أى بنيه، أكرمى مثواه، ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له».

وبعث رسول الله إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم:

«إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا تردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاءه عليكم، فأنتم أحق به».

قالوا: «يارسول الله، بل نرده».

فردوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيئًا.

ورحل أبو العاص إلى مكة، مودعًا زينب وولديه وقلبه يتقطع، وزينب مازالت تبكى، أما آن لك أن تسلم يا حبيبى وتجبر الكسر وتلم الشمل، فقد كنا أحب زوجين على وجه الأرض، أما آن لك أن تتخلى عن عنادك يا ابن الخالة.

وفى مكة، أدى أبو العاص إلى كل ذى مال من قريش ماله، ممن كان أبضع معه، ثم قال:

- «يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟».

قالوا: «لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريمًا».

قال: «فإننى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أننى إنما أردت أكل أموالكم».

وخلف القوم واجمين كأنما نزلت عليهم صاعقة من السماء فأحرقتهم فى مكانهم، وانطلق مستقبلاً يثرب، حيث رسول الله ﷺ وزوجته زينب وولديه على وأمامة، ودخل المدينة مسلمًا مع هلال المحرم سنة سبع من الهجرة.

وتوجه أبو العاص فور وصوله إلى المسجد النبوى، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى ﷺ، ثم حفوا به مهنئين. فرد عليه الرسول زينب بالنكاح الأول، وأثنى عليه خيرًا فقال:

«والله ما ذممنا صهرًا، وقد حدثنى فصدقنى، ووعدنى فوفى لى».

لكن المرض اشتد على زينب، فلم يدم لقاء الحبيبين بضعة شهور حتى ماتت أواخر السنة الثالثة للهجرة، وتركت أبو العاص يترنح من الفاجعة، لا

يكاد يصدق ما حدث! أبعد اللقاء الحار يكون الفراق السريع كلمح البصر، وقبلها بأيام يموت ابنه على فيدفنه بيده؟! إنه يشعر بالذنب، فكم تعذبتِ يا حبيبة، وتحملتِ نيران الوحدة والهجر وتحملت ما تحملتِ من أجلى!

كان أبو العاص ممزق القلب، مدغدغ المشاعر، وهو يبكيها ويناجيها ليل نهار فيبكى كل من حوله.

وأقبل رسول الله يترنح من الحزن، متصدع القلب، مستعبر العين، وقد راعه منظر أبو العاص، وراعه لوعة فاطمة على أختها الكبرى زينب التى كانت أمًا حقيقية لها، رعتها بعد موت أمها خديجة، ولازمتها بعد هجرتها للمدينة، عندما فارقت أبو العاص فى مكة، فضم رسول الله فاطمة إليه وبكى على صدرها، كأنما لم يبك من قبل، ورق لأبى العاص فضمه إليه ضمًا شديدًا وبكيا بكاء مرًا. ثم قال رسول الله للنساء: «اغسلنها وترًا، ثلاثًا أو خمسًا، واجعلن فى الآخرة كافورًا».

وصلى عليها أبوها فى مسجده ثم شيعها إلى مرقدها الأخير وأودعها ثرى طيبة، بجوار أختيها رقية وأم كلثوم.

ورجع أبو العاص بعد دفنها، متهالك القوى، منهارًا، متقويًا بجدران البيوت، عاد إلى داره فاستوحشها، لقد كانت بالأمس القريب جنة الأحباب، واليوم صارت بيتًا للحزن والذكريات.

وعاش أبو العاص بقية عمره يبكى زينب، يحيا على ذكراها، ولم يتزوج بعدها وبقيت معه ابنتهما أمامة، تؤنس وحشته، يلامسها جسمه ويشمها عرقه، فيشم فيها رائحة الحبيبة أمها. وظل حزينًا منطويًا على نفسه فلم يره أحد ضاحكًا منذ ماتت زينب، حتى لحق بها فى حظيرة القدس أيام أبى بكر فى ذى الحجة من السنة الثانية عشر للهجرة. وأوصى بابنته أمامة إلى «الزبير» ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد» وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة.

وقد وجد رسول الله فى أمامة صورة حية من أمها الراحلة، فقربها إليه وأحبها حبًا شديدًا، وأشفق عليها شفقة عظيمة، فآثرها على

الجميع فكان يحملها على عاتقه وهو فى صلاته، ويخرج بها فى شوارع المدينة وهى على صدره، حتى إذا انتهى إلى المسجد أخذ يصلى وهى على عاتقه، فإذا سجد وضعها بجواره، ثم يحملها إذا قام.

وذات مرة أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع (عقد) فقال لنسائه: «لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىّ».

فتمنت كل واحدة أن تظفر بهذه القلادة؛ لكن رسول الله دعا أمامة بنت زينب، فأعلقها فى عنقها وأخذ يضاحكها ويراقصها ويقبلها ويضمها إلى قلبه.

وكان رسول الله يجد فى زينب وأم كلثوم، بنتا فاطمة الزهراء عزاء جميلاً من الله تعالى للراحلتين الغاليتين، فكان يحب ترديد اسمهما دائمًا، ولا يمل من ترديده.

وتمنت فاطمة أن تلد بنتًا ثالثة فتسميها رقية.

وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله على القصواء، مع نحو ألف وخمسمائة من أصحابه يريدون مكة لقضاء العمرة، وليس معهم سلاح إلا السيوف فى القِرَبْ.

وتصدت لهم قريش، تأبى أن يدخلوا مكة، وقال الرسول لصهره عثمان: «إذهب إلى قريش فأخبرهم أنّا لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زوارًا لهذا البيت معظمين لحرمته معنا الهدْى ننحره وننصرف.

وأمسكت أم كلثوم قلبها وهى تخشى على زوجها غدر المشركين وساورها القلق وهى فى انتظار أوبة عثمان، بعد أن طال غيابه فما راعها إلا نبأ ذاع: أن عثمان قد قُتل!

وبادر النبى لما بلغه النبأ، فدعا المسلمين إلى بيعة الرضوان وفيها بايع لعثمان فضرب بشماله على يمينه وقال: «إنه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسول الله».

ولم يطل بأم كلثوم الحزن فلقد عاد عثمان من رحلته ولم يصب بأذى، وتم صلح الحديبية. ثم مرضت أم كلثوم، ماتت فى بيت عثمان فى

شهر شعبان قبيل الفتح المبين.. ووسدها أبوها ثرى يثرب إلى جانب ما بقى من رفات أختيها رقية وزينب، ووقف النبى على قبر أم كلثوم دامع العين. مكلوم القلب بألم الثكل المتتابع.

- 11 -

عندما نقضت قريش ما كان بينها وبين المسلمين من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة. قرر رسول الله فتح مكة، وعلم أبو سفيان[1] بتهيؤ الرسول بالخروج بجيش لا قِبَل للمشركين فى مكة به، فانطلق حتى قدم المدينة لمقابلة رسول الله، لكن رسول الله رفض مقابلته، ورده خائبًا خائفًا.

وسار رسول الله يقود عشرة آلاف مقاتل قاصدًا مكة، فانطلق أبو سفيان وقابل جيش المسلمين ما بين مكة والمدينة، والتمس الدخول على رسول الله ليأخذ منه الأمان على نفسه وأهله، فرفض رسول الله لقاءه من جديد؛ ولكن العباس بن عبد المطلب أدخله، فانتفض عمر متوشحًا سيفه قائلاً: « يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعنى أضرب عنقه».

فقال العباس متضايقًا: «مهلاً يا عمر!».

وتشفع له عند رسول الله، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس:

- «إذهب، فقد أمناه حتى تغدو به علىّ! بالغداة» فرجع به، فلما أصبح غدًا به على رسول الله، فلما رآه رسول الله قال له فى حدة:

- «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله! ».

فقال أبو سفيان وهو يرتجف: «بأبى أنت وأمى، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك!

أما هذه، ففى نفسى منها شىء!!».

---

(١) كان أبو سفيان زعيم قريش بعد مقتل سادتها فى بدر وهو صاحب راية المشركين فى حرب الإسلام.

فقال له العباس معنفًا: «ويلك يا أبا سفيان!! تَشهَّد شهادة حق، قبل والله أن تضرب عنقك».

فتشهد أبو سفيان كارهًا!

وكان رسول الله قد عهد إلى أمرائه ألا يقتلوا أحدًا، إلا من قاتلهم، إلا أنه عهد فى نفر سماهم بأسمائهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم ستة نفر وأربع نسوة منهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح (أخو عثمان بن عفان من الرضاعة). وهبَّار بن الأسود (وهو الذى أوقع زينب من فوق جملها فطرحت جنينها وأصيبت بعلة تسببت فى موتها بعد ذلك). وهند بنت عتبة (زوج أبو سفيان) التى أغرت وحشى لقتل حمزة عم رسول الله، وبقرت بطنه فأخرجت كبده ومضغتها فلم تستسغ طعمها فلاكتها!

ودخل رسول الله مكة فى شهر رمضان سنة ثمانية من الهجرة، ففتحت أم القرى قلبها للنبى العائد، ومن معه من المسلمين، ولم يدر بينهما قتال، وكأنها كانت فى انتظار هذه اللحظة التاريخية التى يحررها رسول الله من سلطان الوثنية القديمة التى طالما حاربوا من أجل الدفاع عنها، حروبًا عقيمة!

وخرجت معه فاطمة، لتشهد الفتح المبين، وعلى أبواب مكة ألمت بها ذكريات وشجون، عندما وقفت قليلاً فى المكان الذى كادت أن تلقى فيه حتفها هى وأختها أم كلثوم، وهما فى طريقهما إلى المدينة، للحاق بأبيهما رسول الله.

وتذكرت أيضًا ما حدث لأختها زينب عندما كانت مهاجرة إلى أبيها فى ا لمدينة بعد وقعة بدر، مفارقة زوجها الذى بقى على شركه فروعها هبار بن الأسود برمحه، فوقعت على الأرض من فوق البعير، وطرحت جنينها وبقيت تنزف!

وتأخذ فاطمة نفسًا عميقًا وتتساءل أين رقية، وأم كلثوم وزينب، لقد طردن من مكة مثلها، وها هى تشهد العودة الظافرة إلى دار الوطن، ولا

تعود أخواتها، فقد نزل فيهما القضاء، وواراهن ثرى طيبة. وها هى صورة الأم الرؤوم خديجة لا تفارقها، وصورة العم العظيم البار أبو طالب الذى تحمل ما ينوء بحمله البشر فى سبيل نصرة ابن أخيه رسول رب العالمين.

ويطوى شريط الذكريات نحو عشرين سنة من عمر فاطمة، كانت طفلة فى الرابعة من عمرها عندما وقف أبوها يدعو عشيرته إلى الدين الجديد، ويذكر اسمها، من دون أخواتها ودون غيرها من بنات عبدالمطلب «ويا فاطمة بنت محمد، سلينى من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئًا».

واستحضرت المشاهد الجميلة، العالقة فى ذهنها، وذكريات الطفولة بين أبويها محمد وخديجة وأخواتها اللاتى أولينها حبًا كبيرًا، خاصة زينب التى كانت بمثابة أم ثانية لها، وذكرياتها مع أترابها تلعب معهن فى بطون مكة.. ويصحبها أباها معه فى كل مكان، وهى متعلقة بصدره، تدخل معه الحرم، وتدخل معه أندية قريش وهو يدعو الناس إلى الإسلام، وهم يصدون عنه ويسفهونه ويعنفونه ويؤذونه فى غِلظة ووقاحة، وهى تتألم وتحزن خوفًا عليه.

كانت معه يوم حاول المشركون خنقه وهو ساجد فى الحرم، وكانت معه يوم وضعوا على ظهره أحشاء بهيمة نافقة، بينما كان ساجدًا لله رب العالمين، فأسرعت فاطمة الصغيرة تنظف ظهره وهى تبكى فرق لها أبوها، فرفع وجهه إلى السماء ودعا عليهم: «اللهم عليك بالملأ من قريش! اللهم عليك بأبى جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وأبىّ بن خلف»[1].

وتذكرت فاطمة محنة المستضعفين من المؤمنين بالله ورسوله، عندما كانوا يلبثون فى العذاب الأليم، وهم لا ينطقون إلا بما يرضى الرب.. تذكرت محنة ياسر وسمية وعمّار وأبو جهل يعذبهم بالحديد والنار،

(١) وهؤلاء الذين دعا عليهم رسول الله، جميعهم قتل حول ماء بدر.

وتذكرت بلال بن رباح وأمية بن خلف يضع على صدره حجرًا ثقيلاً وبلال يقول: «أحد، أحد» وتذكرت خَبَّاب بن الأرت، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى، وغيرهم من السابقين الذين لاقوا الأهوال فى سبيل إيمانهم الراسخ، رسخ الجبال العاتيات فحفظ لهم الإسلام سبقهم وجهادهم ووضعهم فى الصدارة، تذكرت الحصار الرهيب فى شِعْب أبى طالب، وما لاقاه بنى هاشم من مقاطعة شاملة ظالمة، وحصار محكم، أودى بحياة كثير منهم، لأنهم رفضوا خلع أبيها رسول رب العالمين وحرسوا دمه بأرواحهم، فمرض عمها أبو طالب ومرضت أمها متأثرين بهذا الحصار القاسى وماتا على أثره!

* * *

وضُربت للرسول قبته بالحجون، قريبًا من مثوى خديجة، وكأنه يحس بروحها تؤنسه وتفرح معه بنصر الله المبين، والناس يدخلون فى دين الله أفواجًا.

ودخل مكة بدون مقاومة، وكان ﷺ حريصًا ألا يسفك قطرة دم!

وعلى راحلته طاف بالبيت العتيق سبعًا، وسط الجموع الحاشدة ثم ترجل فدخل البيت خاشعًا، وقام يصلى بالمسلمين فى الحرم المكى بعدما طهره من رجس الأوثان، عندما أهوى عليها بقضيب فى يده، وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا».

وخطبهم رسول الله خطبة الفتح قائلاً:

«يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. يا معشر قريش ويا أهل مكة: ما ترون أنى فاعل بكم؟».

قالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم».

---

(١) وكان أبو سفيان يسمى «صخر».

قال: «إذهبوا فأنتم الطُّلقاء»!!

أعتقهم رسول الله، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وهم الذين عذبوا أصحابه وفتنوهم، وآذوه وآذوا أهله وقبيلته، طردوه، وحاربوه عدة حروب، وألَّبوا عليه القبائل؛ لكن رسول الله عفا عنهم، وأطلقهم، بعدما كانوا له فيئًا، أو سبيًا، أو أسرى حرب، (فبذلك سمى أهل مكة بالطلقاء).

واجتمع إليه النسوة من قريش ليبايعنه على الإسلام، وتخرج من قلبهن امرأة منتقبة، متنكرة، ركعت على قدميه تبكى من الخوف، فينطلق صوت رسول الله صاعقًا: «وإنك لهند بنت عتبة؟!!».

قالت وهى ترتعد: «نعم.. أنا هند يا رسول الله، أنا آكلة كبد حمزة أعف عنى يا رسول الله، أعف عنى يارسول الله».

فقال: «ولا تزنين؟!».

قالت: «وهل تزن الحرة»!

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب:

- «بايعهن يا عمر واستغفر لهنّ الله».

وصعق معاوية بخبر إسلام أبيه وأمه، فوبخهما ولامهما، وأنشد يحرض أباه قائلاً:

«يا صخر[1] لا تسلمن يومًا فتفضحنا
بعد الذى ببدر أصبحوا فرقًا
خالى وعمى وعم الأم نالتهم
وحنظل الخير[2] قد أهدى لنا الأرقا
لا تركن إلى أمر تقلدنا
والراقصات بنعمان به الحزقا»!!

---

(١) وكان أبو سفيان يسمى «صخر».

(٢) «حنظل» أخو معاوية الأكبر، وقد قتله المسلمون فى بدر.

فقالت أمه هند تنصحه: «يابنى قلما ولدت حُرّة مثلك، فلا تنظر وراءك، وتطلع إلى المستقبل أمامك»!

بعد ذلك أسلم معاوية وأسلم أخيه عتبة وأخيه يزيد.

* * *

ظن الأنصار أن رسول الله سيمكث فى مكة بعدما فتحها الله عليه، وستتحول عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى مكة، فاكتأبوا وحزنوا وبكوا!

وعندما أعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم[1] وأكثر لهم فى العطاء حتى يحببهم فى الإسلام، غضب الأنصار رضى الله عنهم، وذهب زعيمهم إلى قُبة رسول الله، التى ضربها بالحجون بالقرب من قبر خديجة رحمها الله، يبلغه بمشاعر الأنصار. فسأله رسول الله:

- «فأين أنت من ذلك يا سعد؟!».

قال سعد وهو يغض الطرف من شدة الحياء:

- «يا رسول الله ما أنا إلا من قومى».

فأتاهم رسول الله، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

- «يا معشر الأنصار.. ما قالةٌ بلغتنى عنكم، وجَدَّة وجدتموها علىّ فى أنفسكم؟.. ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟».

قالوا: «بلى.. الله ورسوله أَمَنَّ وأفضل».

- «ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟».

قالوا: «بما نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل».

فما راعهم إلا أن قال لهم رسول الله:

---

(١) المؤلفة قلوبهم هم أهل مكة، فهم دخلوا فى الإسلام بألسنتهم، لكن الإسلام لم يدخل قلوبهم بعد، ورسول الله أراد أن يؤلف قلوبهم بالعطاء والمال، وهم يسمون أيضًا بالطلقاء لأن رسول الله أطلق سراحهم بعد ما كانوا له سبيًا عندما سقطت مكة فى يده واستسلم أهلها.

- «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم:

أتيتنا مُكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك وعائلاً فآسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟!

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟!

فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار!».

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وهتفوا بملء إيمانهم:

- «رضينا برسول الله قسمًا وحظًا».

فقضى رسول الله ﷺ عمرته فى ذى القعدة السنة الثامنة للهجرة، وعاد إلى المدينة، فى رحل الأنصار، وهو يقول لهم: «المحيا محياكم، والممات مماتكم».

- 12 -

أقبل رسول الله متقويًا على أحد أصحابه، لا تحمله قدميه من وقع المصيبة، متصدع القلب، منهار البنيان.. وفاطمة ابنته وسيرين خالة إبراهيم، تبكيان، وإبراهيم فى حجر أمه مارية ينازع، ومارية تنظر إليه زاهلة، وقد تحجرت الدموع فى مآقيها من شدة الحزن.

يتناول رسول الله ابنه من حجر أمه، ويضعه فى حجره يعانقه بنظرات مودع حزين، إلى أن مات، فأخذ يرثيه بكلمات تتم عن قلب يتقطع: «يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حق، ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب».

ويلتفت رسول الله إلى أم إبراهيم، فيواسيها فى ابنها الذى كان يملأ قلبها وحياتها بِشرًا، وكم كانت تفاخر به ضراتها بنسلها من رسول رب العالمين. فقال لها: «إن إبراهيم ابنى، إنه مات فى الثدى، وإن له لظئران تكملان رضاعه فى الجنة».

وباتت مدينة رسول الله أيامًا وليالٍ مغمورة بحزن لا يوصف، فلا تكاد ترى أحدًا فيها إلا دامع العين، متصدع القلب، حزينًا لحزن رسول الله ﷺ. وتمنى كل مسلم على ظهر الأرض حينئذ أن ابنه هو الذى مات، بل وأولاده جميعًا، بل وأهله جميعًا، ولم يتألم رسول الله ﷺ لحظة واحدة ولم يفجع فى ابنه الوحيد، الذى رزقه الله تعالى به على الكِبر[1].

* * *

أغلق رسول الله بابه وبقى يبكى كما لم يبك من قبل، يبكى ابنه إبراهيم، ويبكى أولاده جميعًا، وبناته اللاتى متن وهن فى ريعان شبابهن، واحدة تلو الأخرى.. ولم يبق الله له إلا فاطمة، فلم يفجعه بموتها فى حياته، لأنها جزء منه، وقرة عينه، وحبيبة قلبه..

ولم يَرُعْ فاطمة إلا أن ترى أباها فى هذه الحالة من الحزن والحِداد، مما أثر على صحته وهو فى هذه السن[2]، فدخلت عليه غرفته وارتمت على صدره تبكى وتمسح دمعه وتقبله بين عينيه وتتناول يديه تقبلهما، وترثيه بفيض حبها،: هون عليك يا رسول الله، كفى بكاء يا رسول الله، لا تستسلم للحزن يا رسول الله! ثم قالت له وهى تدفع بأولادها إليه: ليكن هؤلاء أولادك يا رسول الله.. إنهم أحفادك يا أبى، وذريتك، وبقيتك.

فوثبت زينب وأم كلثوم فى حجر جدهما، وتعلق الحسن والحسين فى عنقه وهما يلثمان فمه، ورسول الله يرشف ثغريهما رشفًا ويضمهما بقوة إلى صدره، وقد رضى بهم عوضًا عن أولاده جميعًا.

---

(١) رسول الله ﷺ لم يرزق بالأولاد إلا من خديجة.. ثم رزق الله على الكبر من مارية القبطية بإبراهيم، لكنه لم ينجب من زوجاته الأخريات جميعًا.

(٢) كان عمره حينئذ ثلاثة وستون سنة.

كفكف رسول الله دمعه، وابتسم راضيًا بأولاد فاطمة ابنته، وضمهم جميعًا إلى قلبه، وفاطمة تتناول يديه تقبلهما من جديد، وقد قررت منذ ذلك الحين أن تعيش فى بيت أبيها، ولا تفارقه فلا يفارقها، وتمكث فى حجرتها التى بناها أبوها لبناته ضمن حجرات النبى، وهى الحجرة التى بقيت كما هى منذ انتقال فاطمة إلى بيت الزوجية، وكانت زينب بنت رسول الله تعيش فيها عندما جاءت مفارقة زوجها أبو العاص. وقد خصص رسول الله هذه الغرفة لبناته، تأتى الواحدة منهن فى أى وقت فتمكث فيها، فتشعر أن لها مكانًا فى بيت أبيها.

وأقامت فاطمة وأولادها مع أبيها، قريبة منه، فهى تعرف مدى تعلقه بهم، ولما لا وهى الوحيدة الباقية له بعدما فُجع فى جميع أولاده. وقد أسعد ذلك عليًا، وازدهاه أن يرى رسول رب العالمين يغمره هو وأولاده بكل هذا الحب.

وكان رسول الله يعرف مصيرهم المفجع من بعده، فيتأثر بما يعرفه من الطوايا والنوايا نحوهم، فيبكيهم وهم أحياء، لأنه بصفاء نفسه قد انكشف له الغطاء عن أمور أخبره بها الوحى، فيدنى منه الحسن ويقول: «إلىَّ يابنى» ثم يجلسه على فخذه، ويعدد ما ينزل من البلاء والتقتيل والتشريد والتنكيل، ثم يذكرهم واحدًا واحدًا ويقول:

«أما الحسن فإنه ابنى وولدى، ومنى، وقُرة عينى، وصفاء قلبى وثمرة فؤادى، وهو سيد شباب أهل الجنة، ومُجَّه الله على الأمة، أمره أمرى، وقوله قولى، وإنى لما نظرت إليه تذكرت ما يجرى عليه من الذى بعدى!!».

ثم يدنى منه الحسين ويجلسه على فخذه الآخر، ويضغطه على صدره ويبكى ثم يمسح عينيه ويكمل قائلاً:

«وعند ذلك تبكى الملائكة، والسبع الشداد لموته، ويبكيه كل شىء حتى الطير فى كبد السماء، والحيتان فى جوف الماء.. فمن بكاه لم تعم عينيه يوم تعمى القلوب! ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب!».

ثم يبعثها صرخة مدوية أبد الآبدين ويقول:

«إن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، والحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا، وهما سيدا شباب أهل الجنة».

- 13 -

وجاءت الأنباء بزحف جديد به الروم ضد المسلمين فيما يسمى «تبوك»!

فعندما حقق المسلمون بعد مؤتة ألوانًا من الانتصارات، ففتحوا مكة، وهزموا هوازن وثقيف، أدرك الروم أن مسئوليتهم فى مصارعة المسلمين ضرورية وأنه لم يبق غيرهم يلتزم بمواجهة المسلمين، إذ لم يعد هناك أمل فى أن يتولى العرب القضاء على الإسلام كما حسبت الروم. فجمعت الروم جموعًا كبيرة بالشام، وأعطى هرقل أصحابه أجر سنة مقدمًا وحضرت مع هرقل لخم وغسان وآخرون.

وزحف جيش الروم إلى أطراف الجزيرة العربية!!

وجدَّ الرسول فى إعداد جيش قوى يقابل به جيش المعتدين أولى القوة والبطش الشديد.. ولكن الظروف هذه المرة كانت غير الظروف السابقة، فالعرب قد أرعبهم أن يقفوا وجهًا لوجه أمام الروم، فالروم قوة غير قوة العرب فى معداتهم وحصونهم وتدريبهم، فالعربى مدرب على القتال تبعًا لوسائل الحرب فى الجزيرة العربية، ثم إن الهزيمة التى لحقت بالجيش فى مؤتة كانت لا تزال عالقة بالأذهان، فخاف العرب تكرارها، والروم بلاد بعيدة عن عاصمة المسلمين (المدينة) والوصول إليها شاق عصيب يتعب ثم إن الوقت شديد الحرارة، وكان وقت حصاد!

وزحف جيش المسلمين مستعدًا للفداء، وإن جلّ الفداء، وكان تعداده ثلاثين ألفًا، وقيل أربعين، وقيل خمسين. ولم يكن الروم ينتظرون أن يستجيب هذا العدد الضخم من المسلمين للحاق بالجيش فى فترة الحصاد وزمن الحر ا لقاسى، ولذلك راعهم أن يقدم لهم هذا الجيش

الكبير يقوده أبطالاً مؤمنين لا يعرفون الانهزام، من أمثال أسيد بن خضير والحباب بن المنذر وخالد بن الوليد.. ولذلك نجد جيش الروم يتقهقر ليتخذ مكانه داخل بلاده مدافعًا بعد أن كان يستعد الهجوم!!

ولم يرد الرسول أن يهاجم العدو بعد أن تقهقر، وإذن فليعسكر الرسول بجيشه عند تبوك حيث أرهب الأعداء وعمل المعاهدات مع سكان الحدود بين الجزيرة العربية والشام، وقد شملت هذه المعاهدات سكان تبوك وأيلة، كما أرسل النبى خالد بن الوليد مع فريق من الجيش إلى دومة الجندل، فخضعت له. وانتهت بذلك غزوة تبوك، وهى آخر غزوات الرسول ﷺ.

وهكذا انتهت آخر غزوات الرسول من دون أن يحقق أمله فى القصاص من الروم المعتدين، وتأمين حدود الجزيرة العربية من اعتدائهم، فأعد رسول الله جيشًا وأمَّر عليه أسامة بن زيد لصراع الروم، لعله يحقق القصاص لأبيه زيد بن حارثة الذى قتله الروم فى مؤتة.

وتوفى رسول الله قبل أن يتحرك جيش أسامة، وكان الرسول فى لحظاته الأخيرة يقول: «أنفذوا بعث أسامة.. أنفذوا بعث أسامة».. وهذا يدل أيضًا على أن تعليماته واضحة فى أن سياسة عالمية الإسلام سائدة من بعده كما كانت سائدة فى حياته.

- 14 -

حج رسول الله حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة، وهى الحجة الأولى للإسلام ولم يحج قبلها بعد مبعثه، وفيها علم المسلمون مناسك الحج، ونزلت آية إكمال الدين والنعمة، وأخذ رسول الله معه جميع زوجاته، وارتفع صوت أكثر من مائة ألف مسلم، رجالاً ونساء على السواء، يرددون: «لبيك اللهم لبيك.. لا شريك لك لبيك.. إن الحمد لك والملك لا شريك لك لبيك».

وأدرك رسول الله أنه على وشك الرحيل إلى الدار الآخرة، فقام فى الجمع بمنى يخطبهم خطبة الوداع، ووصاهم وصية الوداع: قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا أيها الناس، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا.. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا وأن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم ابن أبى ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - مسترضعًا من بنى ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك رضى بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم».

ثم قال:

«أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا.. استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم أخذتموهن بأمانة الله.. فأعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت.. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا أمرًا بينا.. أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ اللهم اشهد».

فهتف المسلمون جميعًا ممن شهدوا حجة الوداع «اللهم نعم».

فقال ﷺ: «اللهم اشهد».

* * *

رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأمضى بها بقية ذى الحجة وشهرى المحرم وصفر.

وعندما شكا رسول الله من مرض ألم به، حسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول، ولم يتصور أحد أنه مرض الموت.. لكن المرض ثقل فاستأذن نساءه أن يُمَرَّض فى حجرة عائشة، وقال ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وكان يحتضر، وأهل بيته يحيطون به يبكون، فأشار إليهم لينهضوه قليلاً، حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه، عانق فاطمة ابنته ببريق عينيه وضحك لها، فهوت عليه بصدرها، تقبله وتشمه، وهى تئن أنات موجعة وتقول: «واكرباه!» فيرق لها أبوها ﷺ ويقول لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة». فتناولت يديه المرتجفتين وأخذت تقبلهما وتشمهما وتمسح عليهما عرقها، فقال لها أبوها:

- «ألا ترضين يا فاطمة أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء العالمين»؟

لكن فاطمة مازالت تبكى، يتملكها الحزن والهلع، فيدنيها منه ويهمس فى أذنها يبشرها أنها أول أهله لحوقًا به فى حظيرة القدس، فضحكت فاطمة ورضيت.

ثم غفا رسول الله من سكرات الموت، ولما أفاق، أفاق على بكاء فاطمة فرق لها رقة شديدة، وقال لها: «لا تبكين يا فاطمة، وقولى إذا ما مت، إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة».

فقالت وهى تكفكف دموعها: «ومنك يا رسول الله»؟!

قال: «ومنى»!

وعلا نحيب النسوة من بيت رسول الله إعلانًا بموته، وقد أظلم بموته كل شىء فى المدينة، وكان عندما جاءها مطرودًا من مكة ومهاجرًا، قد أضاء فيها كل شىء.

وفاطمة متشبثة بجثمانه، ولم يجرؤ أحد على إبعادها عن الفراش،

وجعلت تناجيه قائلة: «أبى.. أبتاه. أجاب ربًا دعاه، جنة الفردوس مأواه، من ربه ما أدناه، إلى جبريل نعاه».

وجثا على بن أبى طالب بجوار فاطمة على فراش رسول الله، ودموعه تخضب لحيته، وجعل يناجيه وهو يقبل جسمه، وقال يرثيه: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله. طبت حيًا وطبت ميتًا، وياليتنى مت قبلك ولم أفجع بموتك وفقدك، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع!! بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. إن الصبر لجميل إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا عليك. اذكرنا عند ربك، واجعلنا من همك».

مات رسول الله ﷺ، بعدما أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا زائغ.

لقد قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طُوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان، إذ خلصه من الحماقات والترهات، وقد مضى يحتكم إليه فى معرفة الكائن الأعلى الذى نشّأ الكون ودبّر نظامه، داعيًا إلى أن يتأمل فى ملكوت السماوات والأرض، فإن من ينعم النظر فى هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يخلق عبثًا، وأن له صانعًا سوّى كل شىء فيه وقدره، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ويقول: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ودائمًا كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على العلم والتعلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» و«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة» و«العلماء ورثة الأنبياء».

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنابذة، لا يعرفون فكرة

الأمة إنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصبًا شديدًا، فإذا جنى أحدهم جناية شركته فى مسئوليتها، وإذا قتل لها أحد أبنائها هبّت للأخذ بثأره هبة واحدة. فلما جاء الإسلام ضعف من شأن القبيلة ويحلُّ محلها فكرة الأمة يقول تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وهى أمة يعلوها السلطان الإلهى على السلطان القبلى وعلى كل سلطان، ومن ثم أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هى التى توحد بين الناس.

وكان أول ما وضعه لإحكام هذه الرابطة أنه نقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة، وبذلك لم يعد الثأر - كما كان الشأن فى الجاهلية - يجرُّ ثأرًا فى سلسلة لا تنتهى من الحروب والمعارك الدموية. بل أصبح عقابًا بالمثل، وأصبح على القبيلة أن تقدم القاتل لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه.

وقد مضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم: الثأر للدم، يقول عز شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقال رسول الله فى خطبة الوداع: «يا أيها الناس.. إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى».

وأخذ الإسلام يُرسى القواعد الاجتماعية لهذه الأمة، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يسودهم البر والتعاطف، حتى لكأنهم أسرة واحدة، مُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية، وأيضًا فوارق الشرف والسيادة الجاهلية، فالناس جميعًا سواء فى الصلاة وجميع المناسك وفى الحقوق والواجبات، وينبغى أن يعودوا إخوة، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه، باذلاً له ولمصلحة هذه الأمة كل مايستطيع، فهو لا يعيش لنفسه وحدها،

وإنما يعيش للجماعة، يَفْدها بروحه وبماله وبكل ما أوتى من قوة. ومن ثم وضع نظام الزكاة وعدت ركنًا أساسيًا فى الدين، فواجب كل شخص أن يقدم من ماله سنويًا فرضًا مكتوبًا، وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى، يؤديه إليه راضيًا، ودعا القرآن دعوة واسعة إلى الإنفاق فى سبيل الله، لا بالزكاة فحسب، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقربًا إلى الله ورغبة فى حسن المثوبة.

وعنى الإسلام أيضًا بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والصناعة والزراعة. فقد أوجب للعامل أجرًا يتقاضاه جزاء عمله، وأوجب على التاجر أن لا يستغل الناس بأى وجه من الوجوه، سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى، ولا يكاد يكون هناك جانب من الجوانب الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة.

وقد نظم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية فرد إليها حقوقها، وجعلها كفؤًا للرجل، لها ما له من الحقوق، يقول تعالى: ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾. وأيضًا لهن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة، يقول تعالى: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾. وكان كثير من غلاظ القلوب يئدون بناتهم خشية العار والفقر، فحرم ذلك القرآن، يقول تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وحرم البغاء، وشدد فى النكير عليه حتى القتل، ونظم الزواج وجعله فريضة محببة إلى الله، ونعمة من نعمه، ودعا إلى معاملة الزوجات بالمعروف وقال رسول الله فى حجة الوداع: «.... اتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا»، وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله.

وقد مضى الإسلام يعتد بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل فى جميع الأمم، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق، ورغّب فى ذلك ترغيبًا واسعًا.

وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيرًا للذنوب مهما كبرت، وأعطى للعبد الحق الكامل من المال يكسبه بعرق جبينه. وقد حرم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها، حتى إذا مات رُدّت إليها حريتها، وكانوا فى الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء. فأزال ذلك الإسلام، جعلهم أحرارًا كآبائهم.

ووسع الإسلام حقوق الإنسان فى الدين نفسه إذ نصت آية كريمة على أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. فالناس لا يُكرهون على الدخول فى الإسلام، بل يتركون أحرارًا وما اختاروا لأنفسهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وحقًا اضطر رسول الله إلى امتشاق الحسام، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان.

- 15 -

ورسول الله جنازة لم يدفن بعد، وعلى بن أبى طالب مشغول فى تجهيزه وتكفينه، اجتمع نفر من الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة[1]، وفى نيتهم أن يولوا سعد بن عبادة أمر المسلمين بعد النبى ﷺ.

وكان عمر بن الخطاب أول المهاجرين الذين سمعوا هذا الخبر فأرسل إلى أبى بكر الذى كان فى دار النبى مع على الدائب فى جهاز الرسول يطلب أن يخرج إليه، فرد عليه قائلاً: «إنى مشتغل، ولكن عمر أصر قائلاً: «حدث أمر لابد لك من حضوره».

(١) وهى قاعة متواضعة، مسقوفة، لبنى ساعدة بن كعب بن الخزرج.

ويخرج أبو بكر ويذهب برفقة عمر إلى الاجتماع ومعهما أبو عبيدة ابن الجراح، ويفسر عمر موقف الأنصار قائلاً: «يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر».

واستند الأنصار - رضى الله عنهم - فى ذلك إلى «سابقتهم.. فى الدين وما نتج عنها من فضائل لم تتوفر لأية قبيلة عربية. وعززوا موقفهم بالإشارة إلى أن النبى استمر زمنًا طويلاً يدعو «قومه» إلى الإيمان بالله وحده، فلم يؤمن إلا عدد ضئيل لم يكونوا قادرين على الدفاع عنه، أو تعزيز الدين الجديد، وهذا ما خص به الأنصار. فبقوة الأنصار دانت العرب جميعًا للإسلام، وهذا مما دفع سعد بن عبادة إلى أن يخاطبهم بقوله: «استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس».

وقال عمر مخاطبًا الأنصار فى السقيفة: «والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم» ويردف قائلا: «من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مدل بباطل، أو متجانف لإثم، ومتورط فى هلكة».

ويقف أبو بكر الموقف نفسه لكن بلهجة أكثر لينًا، فيقول: «إن الله تعالى خص المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة قومهم لهم وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف، زار، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم. فهم أول من عبدالله فى الأرض وآمن بالله ورسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم».

ثم يخاطبهم قائلاً: «وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدين الله

ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء».

وحين يرد الحباب بن المنذر قائلاً لجماعته: «لا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقض عليكم أمركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير» ثم قال: «فإن أبوا عليكم ما سألتموه، فأجلوهم عن هذه البلاد» فيجيبه عمر: «إذن يقتلك الله»، ويرد الحباب قائلاً: «بل إياك يقتل».

هكذا أوشكت المجادلة أن تتحول إلى معاركة، فينهض بشير بن سعد ويعلن: «ألا إن محمد ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى. وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم».

ثم يسبق عمرًا وأبا عبيدة لمبايعة أبى بكر.

ومن المعروف أن الأنصار هم الأوس والخزرج، وأن الخزرج هم الذين أرادوا تأمير سعد بن عبادة، وهكذا كانت هذه المسألة مما أيقظ نعرة الأوس فقال أحد نقبائهم: «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا، فقوموا فبايعوا أبا بكر» فقام الناس فبايعوه.

* * *

وعاد أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى بيت النبى ليشاركوا أهل البيت فى دفنه... وعلمت فاطمة بما دار فى السقيفة، وأبوها لم يدفن بعد فبكت أحر بكاء، وقالت لهم فى مرارة: «تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيديكم وقطعتم أمركم بينكم ولم تستأمرونا»!

فبكوا وبكى جميع من فى الدار.

وأدخل الناس على رسول الله أرسالاً، حتى إذا فرغ الرجال أدخل

النساء، ثم أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد، ورُفع فراش النبى الذى توفى عليه، فحفر له تحته ثم دفن من وسط الليل ليلة الأربعاء، وكان قد مات يوم الاثنين.

وخرج أبو سفيان من مكمنه، وانطلق يضم عليه عباءته الفضفاضة ويعفر التراب حوله وفى عينيه يتوقد الشر والغضب، ومن حوله يتجمع كثير من بنى عبد مناف، فراح ينفث حقده وسمه، لعلها فتنة تميت هذا الدين بعد وفاة نبيه، وصرخ أبو سفيان فى الحشد الهمجى الذى تجمّع حوله قائلاً: «ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش، والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً»!

ومن بعيد أقبل على بن أبى طالب يوبخه قائلاً: «يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئًا. إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً».

فقال أبو سفيان يحرض عليًا: «يا أبا الحسن، أبسط يدك حتى أبايعك فتبايعك بنو عبد مناف.. فأنت أحق الناس بخلافة ابن عمك».

فزجره عليًا بشدة وقال له: «ويحك يا أبا سفيان! أمازلت عدوًا للإسلام، إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة».

* * *

وتأخر على عن مبايعة أبى بكر، فقابله أبو بكر فى المسجد فقال له معاتبًا: «لماذا تخلفت عن بيعتنا يا على؟!».

فرد عليه عليًا: «يا أبا بكر، لم يمنعنا أن نبايعك إنكارًا لفضيلتك، ولا نفاسة عليك، ولكنا كنا نرى فى هذا الأمر حقًا فاستبددتم به علينا» ثم ذكر قرابته من رسول الله، فلم يزل يذكر حتى بكى أبو بكر وقال له:

- «والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إن شاء الله».

وفى المسجد الجامع بايع أبا بكر فبايع من تخلف عن البيعة من بنى عبد مناف.

وكانت فاطمة بنت رسول الله ترى أن زوجها أبا الحسن أحق بولاية

الأمر بعد أبيها رسول الله، فهم أهل البيت أحق الناس بالنبى، وترى زوجها أجدر من يأخذ الناس إلى الطريق المستقيم، وما ترى أحدًا أفقه منه ولا أعلم منه ولا أحدًا أزهد منه فى الدنيا.. وترى أن الأمر يجب أن يكون فى آل محمد مادام فيهم القائم بأمر الله، المستتير بسنة رسول الله. لكنها فى نفس الوقت لا تنكر فضل أبو بكر، وأن رسول الله لم يقدم عليه أحدًا من المسلمين لسابقته وفضله وإخلاصه وقوته فى الحق، وكان أبوها رسول الله لا يفارق أبا بكر وعمر، دائمًا يقول كنت أنا وأبو بكر وعمر، جئت أنا وأبو بكر وعمر، فعلت كذا أنا وأبو بكر وعمر.

لكنه ما لبث أن تفجر خلافًا فقهيًا بين أبو بكر من جهة وفاطمة وعلى من جهة ثانية.. عندما نزع أبو بكر «فدك» من تحت أيديها[1].

أبو بكر يقول: إنه سمع رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهبًا ولا فضة، وما تركناه صدقه».

وفاطمة وعلى يقولان: إن الأنبياء تورث بأمر القرآن﴿وورث سليمان داود﴾ ويقول تعالى على لسان زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾. وتضيف فاطمة: إن الحديث الذى يرويه أبو بكر وينفرد بروايته، من أحاديث الآحاد، وأحاديث الآحاد لا تقيد حكمًا أطلقه القرآن.. ولو أن أباها أراد أن ينزع منها فرك لأخبرها قبل وفاته.

واعتزلت فاطمة أبو بكر غاضبة.. فقال عمر لأبى بكر:

- انطلق بنا إلى فاطمة عليها السلام.. فإنا أغضبناها».

وأستاذنا عليها فلم تأذن لهما، فأتيا عليًا فكلماه، فأدخلهما عليها، فردت عليهما السلام بصوت مخنوق بالدموع، ووجهها تجاه الحائط وتكلم أبو بكر فقال:

---

(١) «وَفَدك» قرية بخيبر، كان الله تعالى قد أفاء بها على رسول الله فى سورة الحشر، فوهبها الرسول إلى ابنته فاطمة، وغرسها لها نخيلاً، فكانت تأخذ من خراجها حاجتها وحاجة أولادها وتتصدق بالباقى.

- «يا حبيبة رسول الله ﷺ، والله إن قرابة رسول الله أحب إليّ من قرابتى، وإنك لأحب إلىَّ من عائشة ابنتى، والله لوددت يوم مات أبوك رسول الله أنى مت ولا أبقى بعده. أفترينى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ﷺ وسلم؟! إلا إننى سمعت أباك رسول الله يقول: (لا نورث ما تركناه صدقة).

فقالت فاطمة لهما: «أرأيتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟!».

قالا: «نعم!».

قالت: «أنشدكما الله، ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: (رضا فاطمة من رضاى، وسخط فاطمة من سخطى، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى».

قالا: نعم، سمعنا رسول الله ﷺ يقول ذلك!

قالت: فإنى أشهد الله وملائكته، أنكما أسخطمانى، وما أرضيتمانى، ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه.

فارتعد أبو بكر وقال: أنا عائذ بالله من سخطك يا فاطمة.

وانتحب حتى كادت نفسه تزهق، وخرج من عندها باكيًا وخرج عمر مطرقًا متصدعًا، حتى اجتمع الناس إليه فى المسجد فقال لهم:

- يبيت الواحد منكم معانقًا خليلته، مسرورًا بأهله، وتركتمونى وما أنا فيه، لا حاجة لى ببيعتكم، أقيلونى، أقيلوا بيعتى.

قالوا له: يا خليفة رسول الله ﷺ، إن هذا الأمر لا يستقيم إلا بك، وأنت أعلمنا بذلك، وإن كان هذا لم يقم لله عز وجل دين».

قال: والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بت ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة، بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة.

وأغلق موضوع فدك، وعاشت فاطمة أيامها تتجهز للرحيل ولقاء أبيها فى جنة الخلد[1].

- 16 -

عاشت فاطمة أيامها الباقية ساخطة حزينة، فلم تضحك بعد موت أبيها، وكان قد بشرها أنها أول أهله لحوقًا به فى جنة الخلد، فبقيت تنتظر اللقاء الأبدى. وأمضت أيامها بعده تبكيه بغير إنزاف، فعدت من البكائين الستة فى التاريخ[2]. وعاشت بعده معصبة الرأس، ناحلة الجسم، زاهدة فى الطعام والشراب، يغشى عليها ساعة بعد ساعة، وهى تناجى أباها وتردد اسمه وتقول لولديها: «أين أبوكما الذى كان أشد الناس شفقة عليكما، فلا يدعكما تمشيان على الأرض، ولا أراه يفتح هذا الباب أبدًا، ولا يحملكما على عاتقه كما كان يفعل؟!» ثم تبكى فيبكى الصبيين، وتبكى بنتيها زينب وأم كلثوم.

واعتزلت فاطمة المجتمع، منطوية بحزنها على فراق أبيها، تشعر بمرارة الظلم وهضم الحقوق، تبكيه فى بيت الأحزان (وهو البيت الذى بناه لها على فى البقيع، وسمى بيت الأحزان وهو الذى أوت إليه فاطمة عليها السلام والتزمت فيه الحزن والبكاء، منذ وفاة أبيها إلى أن لحقت به بعد خمسة وسبعين يومًا).

(١) فأما فدك، فقد صار لها شهرة كبيرة فى التاريخ الإسلامى، وعندما وَلّى معاوية ابن أبى سفيان نفسه خليفة للمسلمين، أمعن فى السخرية من أهل البيت، وأكثر من الاستخفاف بالحقوق المهضومة، فأعطى فدك لابن عمه مروان بن الحكم! وبعد وفاة مروان إلى ابنه عبدالعزيز ثم إلى عمر بن عبدالعزيز، فأمر عمر عامله على المدينة أن يعيد الحق إلى أصحابه، وأن يعيد فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام، فتلكأ وبعث له يسأله: «أى ورثة فهم متفرقون فى الأرض؟!». فرد عليه عمر مؤنبًا تباطؤه فى تنفيذ الأمر: «لو قلت لك تصدق بشاة لأرسلت تسألنى، أشاة سوداء أم بيضاء؟! افعل ما تؤمر».

(٢) بكى آدم ندمًا، وبكى نوح قومه، وبكى يعقوب ابنه يوسف، وبكى يحيى خوف النار، وبكت فاطمة أبيها رسول الله، وبكت زينب جميع أهل البيت الذين قتلوا أمام عينيها فى كربلاء.

وتضع رأسها على صدر زوجها، توصيه وصيتها الأخيرة، قالت:

- «يا ابن عَمٍّ، إنه قد نعيت إلى نفسى وإننى لا أرى ما بى إلا أننى لاحقة بأبى ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء من قلبى».

قال على كرم الله وجهه: «أوصينى بما أحببت يا بنت رسول الله ﷺ»

وأخرج من كان فى البيت، قالت: «يا ابن عمٍّ، ما عهدتنى كاذبة، ولا خائفة ولا خالفتك منذ عاشرتك».

فقال على:

- «معاذ الله!! أنت أعلم بالله تعالى، وأنت أتقى وأكرم، وأشد خوفًا من الله تعالى، وقد عز على مفارقتك وفقدك، إلا أنه أمر لابد منه. والله لقد جددت على مصيبة رسول الله ﷺ، وجل فقدك، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم بكيا ساعة، وأخذ على كرم الله وجهه رأسها وضمها إلى صدره ثم قال: «أوصينى بما شئت يا حبيبة».

فأوصته رضى الله عنها، أن يتزوج أمامة بنت أختها زينب ،بنت أبو العاص بن الربيع، فهى بنت أختها وتحنو على أولادها. وأن يتخذ لها نعشًا وصفته له، فكانت أول من يحمل فى نعش، وأن تدفن ليلاً فى البقيع، وأن يدفنها سرًا، ولا يشهد جنازتها أحد الذين ماتت وهى غاضبة عليهم، وأن يغسلها فى قميص رسول الله ﷺ ولا يكشف عنها.

* * *

ولما كانت ساعة الاحتضار، قالت لأم سلمة بصوت يعانقه الموت:

- «يا أُمَّه.. قدمى لى فراشى فى وسط البيت» فوضعت أم سلمة فراشها فى وسط البيت وأضجعت فاطمة، فاستقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها، ثم قالت: «يا أُمَّه.. إننى مقبوضة الآن وقد تطهرت، فلا يكشفنى أحد».

ماتت فاطمة بنت رسول الله، وبقيته الباقية، ليلة الثلاثاء لثلاث

خلون من شهر رمضان، وهى يومئذ ابنة تسع وعشرين سنة. وغسلها على بن أبى طالب وأسماء بنت عميس، وصلى عليها عمها العباس بن عبدالمطلب.

ماتت فاطمة فانطفأت مدينة رسول رسول الله مثل انطفائها يوم موته، وأظلم فيها كل شىء، وانصهرت قلوب المسلمين حزنًا، وفارت المدينة فورانًا، تضج بالبكاء والنحيب. فلم يكد حزنهم على رسول الله يهدأ، حتى ماتت بضعته الشريفة، وحبيبة قلبه الغالية!

وقبيل موتها، غسلت ولديها، وأمرتهما بالخروج إلى زيارة قبر جدهما المصطفى، فخرجا وهما يفكران فى الأمر، هل تموت أمنا من وجعها؟! فلم يلبثا طويلاً عند قبر جدهما، حتى رجعا قافلين إلى الدار، مشدودين إلى أمهما فاطمة، فلما أتيا إليها قالا لأسماء بنت عميس: «أين أمنا؟!» فأجابتهما وهى مختنقة بالدموع: «إن أمكما قد انتقلت إلى جنة الخلد». فيرجع السبطين إلى قبر جدهما ﷺ باكيين، مكسورين، ولم يجدا حولهما قلبًا حانيًا يحنو عليهما، أو صدرًا رحيبًا يبكيان عليه، فقد مات جدهما الذى أولاهما كثيرًا من حبه ورحمته وشفقته، وبعده بأيام ماتت أمهما!

فانطويا على نفسيهما متعانقين، باكيين، يناجيان القبر، فأقبل بعض الأنصار رضى الله عنهم مسرعين نحوهما، وأنَّ القوم من البكاء، عندما شاهدوا ابنىّ رسول الله ﷺ يبكيان، على قبر جدهما، فسألوهما:

- ما يبكيكما يا ابنى رسول الله ﷺ؟! لعلكما نظرتما إلى موقف جدكما المصطفى ﷺ فبكيتما شوقًا إليه.

فأجابا فى لوعة وأنين وهما متشابكين: أَوَليس قد ماتت أمنا فاطمة!

فسلبا شعور القوم وشبت نار الحزن والندم فى قلوبهم وتطاير الخبر إلى بيوت المدينة، فضجت بالبكاء والعويل، وفارت فوران الدم فى أعلى الرأس، وعم الحداد بلاد المسلمين.

وتنفيذًا لوصية فاطمة، دفنها علىّ سرًا، فلم يكن معه سوى الصفوة من أصحابه مثل: عمار بن ياسر وأبى ذر الغفارى وبلال والمقداد وسلمان الفارسى وابن عباس. ويسوى حول قبرها قبورًا مزورة حتى لا يعرف أحد موضع قبرها!

ورجع عليًا إلى قبر أبيها رسول الله ﷺ يناجيه باكيًا شاكيًا:

«السلام عليك يا رسول الله.. عنى وعن ابنتك وزائرتك، النازلة فى جوارك، والبائنة فى الثرى ببقعتك، والسريعة اللحاق بك، قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى، ورقَّ عنها تجلدى، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ، فلقد وسدتك فى ملحود قبرك، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك فإنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة.

أما حزنى فسرمد، وأما ليلى فمسهد إلى أن يختار الله لى دارى التى أنت مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال، واستخبرها الحال. هذا ولم يطل العهد، ولم يخلق منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئِم، فإن أنصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين».

- 17 -

كان نشاط أبو بكر مستهل عهده، إنجاز بعث آخر سرية عقد النبى ﷺ لواءها بيده لمولاه وابن مولاه أسامة بن زيد، ليخرج إلى الروم بالبلقاء، على أطراف الشام. وقد أشفق المسلمون من خروجه بهم وحركة الردة قد تفشت فى القبائل العربية، ونجم النفاق واشرأبت اليهود تتربص بالإسلام ودولته الدوائر، ووقف هرقل على حدود الجزيرة العربية يستعد لغزوها، فأصر أبو بكر على إنفاذ بعث أسامة، وانتصر على الروم.. وتم القضاء على حركة الردة فى فترة قصيرة.

ورُئِب الصدع، وعاد الحق إلى نصابه، وعادت أضواء الإسلام تعم الجزيرة العربية كلها. وأعلن فى موسم الحج أن الجزيرة العربية دار المسلمين. وبعد استتباب الأمور فى الجزيرة العربية، رأى أبو بكر الصديق بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كى ينشروا الإسلام فى آفاق الأرض.

وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوب العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام، أحدها بقيادة عمرو بن العاص، والآخر بقيادة يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة، وانتصر الجيشان فى فلسطين، وسرعان ما أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد، وجعل له إمارة الجيوش.

فانتصر على أرطبون فى موقعة أجنادين، كما انتصر فى موقعة اليرموك. وحاصر دمشق، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص.

من أجل ذلك خطط أعداء الإسلام فى الخارج والداخل لقتل خليفة رسول الله؛ هذا الخليفة الضعيف فى جسمه القوى فى أمره،

هذا الشيخ الذى يجله المسلمون، ولا يختلف عليه اثنان، فقد قال عنه على بن أبى طالب: «أبو بكر كالجبل الذى لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف...».

واستطاع أعداء الإسلام اغتيال خليفة رسول الله بمنتهى السهولة، فلم تكن حوله حراسة تحميه ودسوا له السم فى الطعام قبل عام من وفاته.. فقد كان أبو بكر والحارث بن كلدة يأكلان خزيرة أهديت لأبى بكر، فقال الحارث لأبى بكر: «ارفع يدك يا خليفة رسول الله، والله إن فيها لسم سنة، وأنا وأنت نموت فى يوم واحد». فرفع يده، فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة، وكانت وفاته يوم الاثنين لثمانٍ خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة للهجرة، وكان

سنه ثلاث وستين سنة، وصلى عليه عمر عند المنبر، ودفن بجوار صاحبه رسول الله فى بيت عائشة ابنته.

ولم يعرف المسلمون أى يد خبيثة قتلت خليفة رسول الله، ومن قبل حاولوا قتل رسول الله نفسه بالسم!؟

وأوصى بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب، فبايعه المسلمون، ولم يفضلوا عليه أحدًا، فسار عمر أحسن سيرة مقتديًا بهدى رسول الله وخليفة رسول الله، لا يخاف فى الله لومة لائم. وهو أول من دوَّن الدواوين ورتب الناس فيها على سوابقهم فى الإسلام، وأول من رتب التاريخ العربى وجعله من الهجرة، وأول من تلقب بأمير المؤمنين، وفتح الله له الفتوح. وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد من إمارة الجيوش فى الشام وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح فأتم يعاونه خالد فتوح الشام. وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر.

أما فى الشرق فكانت المعركة حامية الوطيس، وقد أمد عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى، ونشبت سلسلة من الوقائع انتصر فيها المسلمون، وبينما كان الفرس يستعدون للمعركة الأخيرة وهى معركة القادسية توفى المثنى فخلفه فى قيادة الجيش سعد بن أبى وقاص، ومُنى الفرس بهزيمة شديدة، وقتل قائدهم رستم فى المعركة، وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها، ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة. وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته جيوش المسلمين بقيادة النعمان بن مقرِّن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان، ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم اصطخر، وعاش يزدجرد طريدًا، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتله فى مخبئه الأخير.

وولى معاوية بن أبى سفيان إمارة دمشق، فيقبل عليه أبوه يوصيه قبيل رحيله إلى الشام ويحذره من ارتكاب أى حماقة فى عهد عمر. قال

له: «إن هذا الرهط من المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا فصرنا أتباعًا، وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيمًا من أمرهم، فإنك تجرى على أمر لم تبلغه، ولو بلغته لنوفست عليه»!

* * *

عندما رفضت أم كلثوم بنت أبى بكر الزواج من عمر بن الخطاب، تحرجت أختها الكبرى عائشة وقالت لها معنفة: «ترغبين عن أمير المؤمنين؟!».

قالت:

- «لا حاجة لى فيه.. إنه خشن العيش، شديد على النساء»!

وكان عمر ﷺ يعيش حياة زهد وتقشف، وكل همه أن يُشبع بطون الناس.

فقال له عمرو بن العاص: «يا أمير المؤمنين.. أنا أدلك على خير من أم كلثوم بنت أبى بكر.. أنا أدلك على أم كلثوم بنت فاطمة عليها السلام وبنت على بن أبى طالب. أخطبها وتعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ».

وزفت أم كلثوم بنت على وفاطمة إلى عمر، وجلس على يوصى بها عمرًا، لأنه يعرف فارق السن الكبير بينهما، ويحذره من الغيرة ومن الغلظة فهى بنت فاطمة ريحانة النبى وهى من أهل البيت المعصومين الأطهار، وقال له: «إن الله تعالى طهرنا وعصمنا نحن آل البيت، وجعلنا شهداء على خلقه وحججًا على عباده، وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا». وأنجب عمر من أم كلثوم ولدين.

لكن أعداء الإسلام يقفون لهذه الأمة بالمرصاد، وقد أغاظهم هذا الخليفة العادل الذى طبق المساواة والعدل والحرية التى أقرها الإسلام، ونهض بالدولة الإسلامية وفتحت له الآفاق، فدبروا لقتله حتى يستريحوا منه.

وبينما كان عمر مستقبلاً صلاته فى الفجر، طعنه أبو لؤلؤة المجوسى

ثلاث طعنات، وكان مختبئًا فى بعض زوايا المسجد.

فلما أحس عمر حرّ الطعنات بسط يده وقال: أدركوا الكلب! فقد قتلنى.. ثم سقط على الأرض، ودمه ينزف، فماج الناس، وجعل الغلام يطعن من وَليه منهم، حتى طعن اثنى عشر رجلاً غير عمر، وألقى رجل عليه ثوبًا. فلما عرف الغلام أنه مأخوذ قتل نفسه بخنجره، فمات معه سره، ولم تتكشف خيوط المؤامرة الدنيئة حتى اليوم!

وقد جعل عمر أمر الخلافة شورى فى هؤلاء الستة: على وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير، وأمر أن يحضرهم ابنه عبدالله وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على ألا يكون لهما فى الأمر شىء.

ثم قال لعلى: «يا على، قد يعرف الناس لك صهرك وقرابتك من رسول الله - وما آتاك الله من العلم والفقه، فإن وليت من أمر الناس شيئًا فاتق الله».

ثم قال لعثمان: «يا عثمان، قد يعرف القوم لك سنك وصهرك من رسول الله وشرفك، فإن وليت من أمر الناس شيئًا، فاتق الله ولا تحملن بنى أبى مُعَيْط رقاب الناس».

ثم قال لهم: «قوموا عنى».

فلما قاموا قال: «لئن وَلَوّها الأجلح[1] ليحملنهم على الطريق» فقال له عبدالله بن عمر: «فما يمنعك يا أمير المؤمنين».

قال: «لا أريد أن أحملها حيًا وميتًا».

بعد ثلاثة أيام، وفى المسجد الجامع، رفع عبدالرحمن بن عوف يد عثمان وبايعه على سنة الله ورسوله وسيرة أبى بكر وعمر، وعلى ألا يجعل أقاربه «الطلقاء» على رقاب الناس، وعاهده عثمان على ذلك وأقبل أبو سفيان من بعيد يصيح من شدة الفرحة أن صار مُلْك محمد فى بنى

(١) الأجلح هو «على بن أبى طالب»، لانحسار الشعر من جانبى رأسه.

أمية.. وعانق ابن أخيه عثمان، وشد على يديه وهو يقول له: «إنه المُلك يا عثمان.. لا أعرف غيره.. لا أعرف الجنة ولا النار»؟

ثم توجه أبو سفيان إلى المقابر، فوقف أمام قبر حمزة بن عبدالمطلب وأخذ يركل القبر برجله وهو يقول له شامتًا: «يا حمزة إن الأمر الذى كنت تقاتلنا عليه بالأمس، قد ملكناه اليوم، وكنا أحق به!!».

فاستبشع عثمان مقالة عمه وزجره زجرًا عنيفًا، لكن عثمان ما لبث أن جعل أقاربه من بنى أمية على رقاب الناس، فأقر معاوية على دمشق وضم إليه الشام كله، وترك له الأمر لا يحاسبه ولا يراجعه، وعزل عمرو ابن العاص عن مصر وولى مكانه أخيه «عبدالله بن أبى سرح» وعلى اليمن يعلى بن أمية، والبصرة سعيد بن العاص ابن خالته.. إلخ. فنشر هؤلاء الولاة الفساد فى الأرض واستأثروا بالفىء والأموال.. وما لبث أن صار ابن عمه مروان بن الحكم رئيس ديوان الخلافة وخازن بيت المال والحاكم الفعلى للبلاد لأن عثمان كان يطيعه ولا يعصيه وسلمه خاتم الخلافة، وانحرف عثمان عن سيرة أبى بكر وعمر، فلام المسلمون عبدالرحمن بن عوف - رحمه الله - لأنه اختار عثمان وفضله على علي بن أبى طالب؛ وقالوا له: «هذا عملك، واختيارك لأمة محمد!».

فبكى عبدالرحمن ندمًا، وقال: «لم أظن هذا به».

وأتى عثمان فقال له: «إنى إنما قدمتك على أن تسير فينا سيرة أبى بكر وعمر وقد خالفتهما».

قال عثمان: «عمر كان يقطع قرابته فى الله، وأنا أصل قرابتى فى الله».

فقال له عبدالرحمن غاضبًا: «الله علىّ ألا أكلمك أبدًا».

فمات عبدالرحمن بن عوف فى حياة عثمان وهو لا يكلمه، ويستغفر الله اليوم كله لما اختاره لأمة محمد ﷺ.

واستمرت سياسة عثمان، ومازال المتجبرون من أقاربه، يملأون خزائنهم وخزائن أصدقائهم بمال المسلمين، ويظلمون الرعية ويعاملونهم

كأنهم عبيد أرقاء. واستفرد معاوية بالشام وأخذ يؤسس فيها ملكه، فتوسع فى شراء وجوه أهل الشام ورؤسائه بالأموال والأعطيات والجوارى الجميلات والمناصب.

وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان فى الكوفة يقودها الأشتر النخعى، وفى مصر يقودها محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة.

ويقود أبو ذر الغفارى لواء المعارضة لسياسة الدولة المالية، واستئثار الولاة الأمويون بمال المسلمين وإنفاقه على هواهم، ودعت ثورته للعدل والمساواة لأنه كان هناك الفقر المدقع يجاور الغنى الفاحش.. وضاق به معاوية فطرده من الشام لأنه أفسد عليه الفقراء، ثم نفاه عثمان إلى «الربذة» وهو مكان معزول فى بادية الجزيرة العربية، وبقى أبو ذر فى منفاه حتى مات هناك وحيدًا[1].

وقاد عمار بن ياسر معارضة عنيفة فى المدينة لانحراف الخليفة وتسليمه لبطانته الفاسدة، فاعتقلوا عمار وضربوه حتى فتقوا بطنه وطرحوه فى الطريق ينزف، وكانت ليلة شاتية باردة، حتى أمرت أم المؤمنين أم سلمة فأدخل دارها وأقبلت وفود الأمصار على عثمان تشكو إليه عماله واستبدادهم وركوبهم الأهواء، وإفسادهم وفسادهم، حتى إن أحد ولاته صلى بالناس وهو سكران، وكان يعاملهم وكأنهم عبيد أرقاء، وتمنت الوفود أن ينصفهم عثمان بعض الإنصاف الذى بعهد الأولين فوعدهم خيرًا فى ظاهر الأمر، وبطن لهم حيلة القضاء على زعمائهم فلما كانوا فى بعض الطريق إلى ديارهم بعد لقائهم له فى المدينة ضبطوا كتابًا من مروان بن الحكم رئيس ديوانه، يأمر فيه عمال الأمصار بقتل زعماء الوفود وصلبهم ساعة وصولهم! فرجعوا إلى المدينة ثائرين،

(١) وبذلك تصدق نبوءة الرسول ﷺ فى أبى ذر: تعيش وحدك وتموت وحدك.. وتبعث وحدك!

وحاصروا قصر الخلافة، وخيروا عثمان بين ثلاث: «ليس من أحدهم بد: بين أن تخلع لهم أمرهم، فتقول: هذا أمركم فاختاروا له ماشئتم وبين أن تقص من نفسك، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك».

فأجابهم عثمان قائلاً: «والله لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلىَّ من أن أخلع قميصًا قمصنيه الله»!

وحاول على ابن أبى طالب أن يطفئ نار الفتنة، وأن يحسم مادة الخلاف بين عثمان والثوار المحاصرين لدار الخلافة بطريقة صالحة ترضى الطرفين لكن لم ينفع عثمان نصح على إلا عنادًا وإصرارًا واستكبارًا!

وقوى جانب الثوار حين انضم إليهم خلق كثير من أهل المدينة الساخطين على سياسة مروان بن عبدالحكم، (الحاكم الفعلى للمسلمين) فلما تعاظم الخطر على من فى الدار، تخلى عنه أبناء عائلته وهربوا خفية إلى الشام عند نسيبهم وابن عمهم معاوية. واستمر حصارهم لقصر الخلافة أربعين يومًا، وأرسل عثمان وبعض الصحابة إلى معاوية والى الشام لكى يرسل جيشًا يقهر هؤلاء الثوار، لكنه لم يتحرك، ووقف موقف المتفرج ينتظر! وكذلك لم يتحرك أحد من باقى الولاة الأمويين الذين عينهم عثمان فكان ظلمهم وفسادهم سببًا فى ثورة المسلمين عليه.

وأمر عثمان المدافعين عنه من أهل المدينة ألا يريقوا دمًا، وألا يتصدوا للثوار، ولم يظن عثمان، ولم يظن أحد من الصحابة، ولم يظن الثوار أنفسهم أن أحدًا يجرؤ على ذبح عثمان فى الأشهر الحرم، وهو خليفتهم، وهو ما هو من الشرف والفضل» فمن إذن قتل عثمان وأى يد آثمة تذبح خليفة المسلمين فى الأشهر الحرم، أى نفر من أعداء هذه الأمة، سواء من الداخل أو الخارج سولت له نفسه أن يندس فى قلب الثوار فينفذ خطة الاغتيال بمهارة وبسرعة ماكرة.. حتى إن ثوار مصر لما دخلوا على خليفتهم ورأوه مذبوحًا انكبوا عليه يبكون، وجعلوا يقولون: والله ما أردنا قتله، كنا نهدده فقط!

قتل عثمان فى ذى الحجة، سنة خمس وثلاثين للهجرة، وكانت ولايته اثنتى عشرة سنة إلا اثنتى عشرة ليلة.. وكان معه فى الدار من يدافع عنه، الحسن بن على والحسين بن على، وعبدالله بن عمرو عبدالله بن الزبير، وأبو هريرة، ومحمد بن حاطب، وزيد بن ثابت الأنصارى.

- 18 -

ظل المسلمون حيارى بعد مقتل عثمان، فوضى، لا يجدون ملجأ.. والثوار يحتلون المدينة احتلالاً عسكريًا، هؤلاء الثوار كانوا شراذم من الجيوش الإسلامية المرابطة فى ثغور البصرة والكوفة ومصر، ومن ثاب إليهم من شراذم الأعراب والمنافقين.. ودُفن الخليفة بليل وعلى استحياء شديد من الناس.

وقد واجه المسلمون إثر مقتل عثمان مشكلتين من أخطر ما عرض من مشكلات منذ خلافة أبى بكر، إحداهما تتصل بالخلافة، فلم يكن للمسلمين نظام مقرر مكتوب أو محفوظ يشغلون به منصب الخلافة حين يخلو، وإنما كانوا يواجهون خلو هذا المنصب كما يستطيعون أن يواجهوه.

والثانى يتصل بإقرار النظام وإنفاذ أمر الله فيمن قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض.

وقال على بن أبى طالب للناس الذين أقبلوا يبايعونه للخلافة:

- «إن تركتمونى فإنما أنا أحدكم، إلا إننى من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه».

قالوا له: «والله ما نحن بتاركيك حتى نبايعك».

قال: «دعونى والتمسوا غيرى، فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول». فقبلها وهو كاره، آملاً فى جمع كلمة المسلمين، خائفًا من ضياعهم وتشرذمهم.

وكانت بيعة على تختلف عن بيعة من سبقه من الخلفاء، فالثوار يحتلون المدينة ويملكون أمرها، وأصحاب النبى من مهاجرين وأنصار كثير منهم متفرقون فى الأمصار، ونفر منهم اعتزل الفتنة ولم يشارك فى بيعة الخليفة الجديد، مثل سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر وأسامة بن زيد، وبايع طلحة والزبير كارهين، بناء على ذلك تمت بيعة على بالأغلبية دون أن ينعقد عليها الإجماع، كما كان الحال فى بيعة الخلفاء الذين سبقوه، وها هى الشام لا تريد أن تستقيم له، ذلك أن الشام لم تشارك فى الثورة على عثمان من جهة وكان حكمه إلى معاوية بن أبى سفيان من جهة ثانية.

وكان أصحاب على يَحْذَرون معاوية بن أبى سفيان، عامل عثمان على الشام، يعرفون قرابته من الخليفة المقتول، ويعرفون طاعة الشام له، بطول إقامته فيهم، وحسن سياسته معهم، وشرائه لوجوههم ورؤسائهم.. وكانوا يعرفون مكان معاوية من بنى أمية فقد صار شيخهم بعد أبيه، ويعرفون الخصومة القديمة بين بنى هاشم وبنى أمية قبل الإسلام.

ويعرفون أنه ابن أبى سفيان الذى لم يتهاون فى حرب الإسلام ونبيه، فكان أشد أعداء الله ورسوله، وأقواهم شكيمة، فهو الذى قاد قريشًا للقضاء على الإسلام والمسلمين فى أحد ثأرًا لقتلاهم فى بدر، وقاد المشركين يوم الخندق، وألب العرب على النبى وأصحابه، وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبى وأصحابه. وأبو سفيان هو الذى ظل يدفع قريشًا عن الدخول فى الإسلام ويدبر مقاومة قريش للنبى وكيدها له ومكرها به حتى كانت نهايته وهزيمته، وفتح رسول الله مكة، فأسلم أبو سفيان وأسلم ابنه معاوية كارهين مكرهين حتى يسلما من عقاب النبى وبطش المسلمين.

ويعرفون أنه ابن هند؛ أشد النساء عداوة للإسلام ونبيه، فهى التى حرضت قريش لقتال المسلمين فى أُحد، وخرجت تقود نساء قريش،

وأخذت تمثل بجثث الشهداء وصنعت من آذانهم وأنوفهم عقدًا لها ولأصحابها. وأغرت بحمزة حتى قُتِل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده، وكادت تدفع النبى نفسه إلى الجزع على عمه الكريم!

وأهدر النبى دمها يوم الفتح ولو كانت متعلقة بأستار الكعبة لكنها سارعت بنطق الشهادتين لتحفظ دمها!

وكان الناس يعرفون أن الأمور لا يمكن أن تستقيم بين الخليفة الهاشمى والأمير الأموى، فكانوا يعرفون أن قريشًا حجبت الخلافة عن بنى هاشم بعد وفاة النبى إيثارًا للعافية وكراهة أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البطن من قريش، وكانوا يرون أن الله قد آثر بنى هاشم بنبوة محمد ﷺ فاختصها بخير كثير وأن بنى هاشم ينبغى لهم أن يقنعوا بما آثرهم به من هذا الخير الضخم والفضل العظيم، فكان الناس إذن يشفقون من فساد الأمر بين على وبنى هاشم من جهة وسائر قريش من جهة أخرى، من أجل ذلك اعتزل عدد من كبار الشخصيات بيعة على وأقاموا ينتظرون!!

* * *

أول ما واجه عليًا من أمور الحكم، هو ضرورة تغيير ولاة عثمان الذين كان ظلمهم وجورهم سببًا فى قدوم الثوار إلى المدينة وقتلهم للخليفة، فكان أول قرار أصدره على هو عزل ولاة عثمان الذين كانوا سببًا فى إشعال نار الفتنة وقال: «ما كنت متخذ المضلين عضدًا» وطلب من كل مسئول معزول تقديم كشف حساب لما كان تحت يده من مال الدولة.

وهنا تقدم المغيرة بن شعبة ونصح أمير المؤمنين بأن يثبت عمال عثمان على أعمالهم، وفيهم معاوية، عامه الأول حتى يستقيم له الناس وتأتيه طاعة الأقاليم، ثم يغيرهم بعد ذلك كما يحب، فأبى علىّ ذلك كراهة الإدهان فى دينه.

ثم ألح عليه ابن عمه عبدالله بن العباس فى أن يثبت معاوية على

أقل تقدير. ولكن عليًا أبى عليه ذلك مخافة الإدهان فى الدين، وعرض عليه إمرة الشام فاعتذر ابن عباس.

إن عليًا لم يكن يستطيع أن يستبقى عمال عثمان، كان دينه يمنعه من ذلك لأنه طالما لام عثمان على تولية هؤلاء العمال المفسدين، وطالما أنكر على هؤلاء العمال سيرتهم الجاهلية فى الناس، فلم يكن يستطيع أن يطالب بعزلهم أمس ويثبتهم على عملهم اليوم، وتمنعه السياسة من هذا، فهؤلاء الثائرون الذين شبّوا نار الفتنة لم يكونوا يكتفون بتغيير الخليفة، وإنما كانوا يريدون تغيير السياسة كلها وتغيير العمال قبل كل شىء. ولعلهم لم يكونوا يستثنون من هؤلاء العمال إلا أبا موسى الأشعرى الذى اختاره أهل الكوفة عاملاً عليهم وأقرّ عثمان اختيارهم إياه، لكن أمير المؤمنين لم يكن مصيبًا أبدًا باستعجاله فى عزل ولاة عثمان، قبل أن تستقيم له الخلافة وتأتيه بيعتهم وطاعتهم، فقد وقع المحظور، فهؤلاء الولاة المفسدين هربوا بما استطاعوا حمله من أموال ولاذوا بمكة حيث لا تطولهم يده وجمعوا حولهم كل الساخطين عليه، الخائفين من عدله، والأخطر أن معاوية أمير الشام أعلن العصيان والحرب عليه، ونشر قميص عثمان الذى قتل فيه على منبر جامع دمشق وحشد تحته الحشود لقتاله تحت شعار «الطلب بالثأر لعثمان»!

وأقبل طلحة والزبير على أمير المؤمنين، عندما شعرا بحاجته إلى ولاة جدد يحلون مكان الولاة المعزولين. وقالا له:

- هل تدرى على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟

فقال:

- نعم! على السمع والطاعة.. وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان فقالا: لا، ولكنا بايعناك على أنَّا شريكاك فى الأمر!

فقال على: لا، ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد.

رأى طلحة والزبير إصراره على الاحتفاظ بسلطته كاملة، فتقدما إليه بطلب آخر أهون شأنًا، فطلب منه الزبير أن يوليه حكم الكوفة، ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه حكم البصرة، ليجند له الجند، ليقوى بهم على شوكة الثوار وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم فى قتل عثمان رضي الله عنه.

وكان على فطنًا ذكيًا، فقد أدرك غرض طلحة والزبير وسر اختيارهما مصرى العراق ليتوليا حكمها، وكانت بلاد العراق مورد المال والرجال، وهناك يستطيعان تجنيد الأنصار وبث الدعاية لهما، استعدادًا لمعركة الخلافة القريبة القادمة. ولعلهما أرادا أن يحذوا حذو معاوية الذى استطاع أن يثبت أقدامه فى بلاد الشام وأخذ يناوئ عليّ فرفض عليّ أن يستجيب لطلبهما، وقال لهما إنه يود أن يقيما إلى جواره ليستشيرهما فى مهام الأمور.

بحث طلحة والزبير عن ثغرة أخرى ينفذان منها، فتقدما إلى على بطلب جديد، يطلبان منه الأخذ بثأر عثمان وفتح التحقيق لمعرفة قتلته، وإقامة الحد عليهم، وكانا يدركان صعوبة تحقيق هذا المطلب فى تلك الظروف الحالكة؛ ولذا أجابهما عليّ فقال:

- يا اخوتاه، إننى لست أجهل ما تعلمون، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟! ها هم أُلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثارت إليهم أعرابكم، وهم خلافكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعًا لقدرة على شىء مما تريدون؟!

فقالا: لا. قال أمير المؤمنين: فلا والله لا أرى إلا رأيًا ترون إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوة والمادة.

ركن طلحة والزبير إلى الهدوء ريثما تأتيهم الفرصة للخروج، وجاءت هذه الفرصة حينما أعلن معاوية العصيان، فأخذا يعلنان الثورة على خلافة علىّ، ليرغماه على أن يحارب فى ميدانين.. وتبادلت الرسائل

بينهما وبين معاوية، فأقنعهما معاوية بالخروج وعاهدهما أنه يكفيهما الشام، وعليهما أن يملكا العراق حينئذ يمكنه أن يبايع لأحدهما[1].

فغادرا المدينة وقصدا مكة، لأنه كان هناك عائشة زوجة الرسول تؤدى فريضة الحج، وقد سمعت وهى فى طريقها إلى المدينة، بعد أدائها فريضة الحج، بمقتل عثمان والبيعة لعلى، فعادت أدراجها إلى مكة، وهناك التف حولها كل ساخط على بيعة على.

أراد طلحة والزبير أن يصبغا حركة المعارضة التى يقودانها، وهى حركة سياسية بحتة، بصبغة دينية، فعائشة هى أم المؤمنين، وابنة أبى بكر الصديق.

وفى مكة انضم إلى عائشة طلحة والزبير وعبدالله بن الزبير ومحمد ابن طلحة، وجميع من يطالب بدم عثمان من بنى أمية الذين هربوا من المدينة وعلى رأسهم أولاد عثمان، ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، ثم انضم إليهم ولاة عثمان الذين عزلهم على، فانضم إليهم عبدالله بن عامر عامل عثمان على البصرة ومعه ما حمل من بيت مال البصرة، وكذلك عامل عثمان على اليمن أبو اليعلى بن أمية ومعه ما نهب من بيت مال المسلمين وهو مال كثير ونحو ستمائة بعير، وتوافد عليهم فى مكة من عزلهم أمير المؤمنين من ولاة عثمان، كل منهم بما نهب وسرق من بيت المال. وأنفقوا هذه الأموال الطائلة فى الإعداد للحرب والخروج.

رأى البعض قتال علىّ فى المدينة ولكنهم عرفوا أن رسول الله قد حرَّمها، فضلاً عن أن أهلها هم الأنصار وكلهم يؤازرونه عليًا واقترح البعض الكوفة، فهناك من يميل إلى الزبير، ولكن كان هناك أبو موسى الأشعرى، وقد ثبته أمير المؤمنين على الكوفة لأن أهل الكوفة لا يرضون

(١) كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ طلحة والزبير بالشدة، وكان يحبسهما فى المدينة ولم يسمح لهما بمغادرتها.

بغيره بديلا. واقترح فريق ثالث الذهاب إلى الشام، ولكنهم سرعان ما عدلوا عن هذا الرأى فقد كفاهم معاوية أمر الشام. وأخيرًا استقر رأيهم على قصد البصرة، فقد زعم لهم عبدالله بن عامر واليها السابق أن له بها صنائع، وأن هناك من يميل إلى طلحة.

وقد جعلوا يستعدون للرحيل، واشتروا لعائشة جملاً ضخمًا وصنعوا لها هودجًا مصفحًا من حديد، مغطى بجلود النمور، وجعلوا فيه مكانًا لعينيها، فقالت عائشة، مخاطبة طلحة والزبير: أتأمرانى بقتال؟!

قالا: لا ولكن تعظين الناس وتحرضينهم على الطلب بثأر عثمان!

* * *

عندما بلغ أمير المؤمنين خروج الحشود من مكة فى طريقهم لتملك العراق.. انقلبت أمامه الموازين، وكانت مفاجأة لم تخطر له على بال.

سبحان الله! فتنتان فى عام واحد!!

فتوجه أمير المؤمنين بجيشه الذى كان يعده للقاء معاوية، لصد حشود طلحة والزبير وعائشة قبل أن يصلوا إلى العراق فيكون الأمر صعبًا.

فلقيه عبدالله بن سلام فى الطريق، وأخذ بعنان فرسه وقال له متوسلاً: «يا أمير المؤمنين لا تخرج، فوالله لئن خرجت من المدينة لا ترجع إليها أبدًا، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا»!

واعترضه ابنه الحسن عليه السلام، وأشار عليه ألا يخرج من المدينة فيقتل بمضيعة، وإن خروجه ولقاءه الحشود فى ثورتها وغوغائيتها وهيجانها يؤدى إلى حرب ولقاء دموى، لا يجنى المسلمون منه ناقة ولا جمل، بل سيكون جرحًا فى تاريخ الأمة لا يندمل. ونصحه أن يبقى فى المدينة حتى تهدأ العرب وتعود إلى رشدها، ويتحملون وحدهم إثم ما يصنعون أمام الله والتاريخ.

وقال الحسن بن على بن أبى طالب لأبيه:

- «ستقتل بمضيعة لا ناصر لك».

فأجابه والده بشيء من الأناة والرفق:

- «إنك لا تزال تحن علىَّ حنين الجارية - وما الذى رأيته. واستصوبته؟!».

فيندفع الحسن إلى تفنيد رأى تبناه ويقول: «لقد رأيت لك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم رأيت لك يوم قتله ألاَّ تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمرًا دونك فأبيت علىّ، ورأيت لك حين خرجت السيدة عائشة وهذان الشيخان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يد غيرك فلم تقتنع منى بذلك كله».

وضاق صدر علىّ فقال لابنه: «أى بُنى - أما قولك - لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به - وأما قولك لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر. ولقد مات رسول الله ﷺ وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس أبا بكر فبايعته، ثم توفى وبايع الناس عمر فبايعته، وما أرى أحدًا أحق بها منى، فجعلنى سهمًا من ستة أسهم، وبايع الناس عثمان فبايعته - ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرهين.

أما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير فكيف لى بما قد لزمنى؟!

وفى الطريق أيضًا سأله رجل: «أيمكن أن يجتمع طلحة والزبير وعائشة على باطل؟!» فرد عليه أمير المؤمنين حازمًا: «إنك لملبوس عليك، إن الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله».

* * *

فلما جاءت حشود طلحة والزبير وعائشة البصرة قام عثمان بن

الأحنف عاملها لأمير المؤمنين فمنعهم، لكنهم اقتحموا داره ليلاً فى ليلة باردة مظلمة فقتلوا أربعين من الحرس كلهم من الموالى، واستولوا على بيت المال، ثم قبضوا على عثمان بن الأحنف ونتفوا لحيته ورأسه وشعر عينيه، ثم أعملوا قتلاً فى شيعة علىّ بالبصرة وزعموا أنهم قتلة عثمان، حتى قتلوا ستمائة، فغضب لهم ستة آلاف!!

ورغم جهود علىّ لتلاشى المواجهة المسلحة، التقى الجمعان على تعبئة ذات صباح، فوقعت الكارثة، ولأول مرة فى التاريخ الإسلامى يتقاتل المسلمان!

وكان علىّ قد أصدر أوامره إلى الجند قائلاً: «أيها الناس، لا تبدأوا بقتال، وإذا هزمتوهم فلا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا موليًا، ولا تطلبوا مدبرًا، ولا تكشفوا عورة.. ولا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا سترًا، ولا تقرفوا شيئًا من أموالهم، إلا ما تجدونه فى معسكركم من سلاح أو دواب، أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن».

وفى معمعة المعركة، خرج على يحمل غصن الزيتون، حتى إذا كان بين الفريقين، دعا إليه طلحة والزبير ليكلمهما فخرجا إليه وتواقف ثلاثتهم فسألهما علىّ: ألم تبايعانى؟!

قالا فى حِدَّة: بايعنا كارهين، ولست أحق بها منا. فقال علىّ:

- يا طلحة، أخبأت عُرْسَك فى بيتك، وجئت بعُرس رسول الله تقاتل بها!!!

ثم التفت إلى الزبير وترك طلحة يترنح من وقع الكلمات لا يستطيع جوابًا. (والزبير ابن عمته صفية بنت عبدالمطلب) فقال له برفق.

- يا زبير.. كنا نعدك من آل عبدالمطلب، حتى نشأ ابنك ابن سوء ففرق بينك وبيننا (يقصد ابنه عبدالله بن الزبير).

ثم قال له: أتذكر يا زبير، يوم - كذا - عندما رأيتُ رسول الله مقبلاً

علىَّ فضحكتُ له وضحك إلىَّ، فقلتَ له: لا يترك ابن أبى طالب غروره، فقال لك: «ليس به غرور ولتقاتلنه وتكون له ظالم»؟!

حينئذ صرخ الزبير بأعلى صوته وجعل يقول:

- أجل.. أجل.. أجل.. ولقد ذكرتنى بما كنت قد نسيت.

ورمى سهمه على الأرض، ودموعه تخضب لحيته وردد بأعلى صوته:

- لو ذكرت ذلك ما خرجتُ.. والله لا أقاتلك أبدًا.

لقد كان الزبير - رحمه الله - رقيق القلب، شديد الحرص على قرابته ومكانته من رسول الله ﷺ، ومضى الزبير ولم يقاتل، وكأن انصرافه قد فتَّ فى أعضاد أصحابه، فلم يقتتلوا إلا ضَحْوة يومهم ذاك ثم انهزموا. ومضى الزبير لوجهه حتى أدركه ابن جُرْموز فقتله فى وادى السباع.

ثم ألقى طلحة سلاحه، لكن مروان بن الحكم سارع إليه بسهم فقتله حتى يستمر نزيف الدم كما خُطِطَ له.

واقتتل القوم قتالاً شديدًا، حتى كره بعضهم بعضًا، وملّ بعضهم بعضًا، ويئس بعضهم من بعض! قُتل طلحة وقُتل الزبير، وبقى جمل عائشة، فأمر علىّ بعقر الجمل، عندما رأى القوم يقاتلون حوله بحماس وكأنه كعبتهم، وسقط هودج عائشة، فتوقفت المعركة فورًا!

كانت معركة الجمل شديدة، استمرت سبعة أيام وانتصر فيها أمير المؤمنين، بعد ما عقر جمل عائشة وقُتل الشيخان طلحة والزبير، كما قُتل من الفريقين عدد كبير يقدره البعض بعشرة آلاف من أصحاب الجمل وخمسة آلاف من أصحاب علىّ.

وعم الحداد فى كثير من بيوت الكوفة، والبصرة، ويُتمت الأطفال وترملت النساء، واشتعلت العصبية الجاهلية، ونعرة الثارات القديمة التى عمل الإسلام على محوها!

وبقيت عائشة فى هودجها بعد انتهاء المعركة، حتى جاء أخوها محمد

ابن أبى بكر، فضرب هودجها بيده فى غلظة فقالت خائفة: «من أنت؟».

قال: «أقرب الناس إليك، وأبغضهم إلىَّ.. أنا محمد أخوك!».

ومشت عائشة بصحبة أخيها، إلى حيث سيرها أمير المؤمنين، فلما رأت أشلاء القتلى طافية فوق بركة دموية، أغمضت عينيها جزعًا، وتشبثت فى ثياب أخيها محمد، وقد عضها الندم، ثم صرخت تبكى وجعلت تقول: «ليت أمى لم تلدنى».

ثم قالت: «ليته كان لى من رسول الله بنون عشرة، كلهم ثكلتهم ولم يكن يوم الجمل!».

كانت عائشة أشد المغلوبين حسرة وحزنًا، وأعظمهم ندمًا. وكانت تتلو: (وقرن فى بيوتكن...)، ثم تبكى حتى يبتل خمارها.

وكان أشد الناس حسرة وأعظمهم أسى بين الغالبين علىٌّ نفسه فقد كان يقول: «لو عرفت أن الأمر يبلغ ما بلغ لما دخلت فيه» وكان يقول أيضًا: «أشكو إليك عُجَرى وبُجَرى.. شَفَيْتُ نَفْسى وقَتلتُ مِعشرى» ويقول: «وددت لو أننى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة»!

وعادت عائشة إلى المدينة، لتقر فى بيتها، وكان خروجها يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها على أميالاً وسرح بنيه معها يومًا كاملاً.

ثم أصدر عفوًا عن أصحاب الجمل، وأطلق أسراهم، وعالج جرحاهم وجرحاه، وجمع قتلاهم وقتلاه فدفنهم فى حفرة واحدة، وصلى عليهم!

- 19 -

تلفت معاوية حوله، فوجد نفسه وجهًا لوجه مع أمير المؤمنين، وكانت أقطار الأمة الإسلامية جميعها، شرقًا وغربًا قد بايعت لعلى، ما عدا الشام.. فقد شايع أهله معاوية على الثأر لابن عمه، الخليفة المقتول ظلمًا!

وبدأ معاوية بالاعتداء على أمير المؤمنين، والغارة المتواصلة على أراضى الخلافة، وأمر جنوده أن يرهبوا شيعة على، يقتلون الرجال، ويسبون النساء، وينهبون الأموال.. فوجه النعمان بن المنذر فى ألفى فارس إلى «عين التمر» ووجه الضحاك بن قيس إلى «واقصة» وأمره معاوية أن يغير على كل من مرَّ ممن هو فى طاعة على من الأعراب. ووجه معه ثلاثة آلاف فارس فأخذ الأموال وقتل كل من لقى من الأعراب بـ«الثعلبية» ومضى حيث انتهت إلى «القطقطانة» فأتى عمرو بن عميس بن مسعود وكان فى خيل لأمير المؤمنين وأمامه أهله، وهو يريد الحج فأغار على من كان معه، فقتلهم جميعًا فلم يبق منهم أحدًا، ونهب أمتعتهم.

ثم سار معاوية بنفسه إلى دجلة حتى سار فيها بسوء!!

وضم معاوية إليه عمرو بن العاص، وعمرو داهية من دواهى العرب وناب من أنيابهم، ومناه بمصر طيلة حياته (وكان عثمان قد عزل عمرو عن مصر، وولى مكانه أخيه من الرضاعة ابن أبى سرح).

وقد التأم حول معاوية جمع ليس به بأس من أولى مشورته فى الشام، وهم رؤساء الأجناد وشيوخ القبائل وأهل بيته من بنى أبى سفيان، وبنو عمومته من بنى أمية. وكلهم كانوا يحرضونه على النهوض للحرب ويستبطئونه ويوشك بعضهم أن يتهمه بالعجز والقصور!

* * *

ولم يأت شهر ذى الحجة من سنة ست وثلاثين حتى تهيأ معاوية وسار فى جموع أهل الشام حين علم بتأهب أمير المؤمنين للمسير، فالتقوا على الحدود العراقية السورية فى صفين، الواقعة على الضفة اليمنى للفرات وأمر أمير المؤمنين جنده ألا يبدأوهم بقتال عسى الله أن يكف أيديهم عنه، ويحقن دماء المسلمين. وأتيح للفريقين أن يلتقوا آمنين أيامًا، يسعى بعضهم لبعض ليس بينهم قتال، ولكن جدالاً شديدًا

وخصامًا عنيفًا.

وسعى بينهم السفراء سعيًا متصلاً، ولكنهم لم يصلوا إلى صلح أو شيء يشبه الصلح، واستبان لأولئك وهؤلاء فى غير شك ولا لبس أن ليس بد من أن يصطدم الجمعان. وتعبأ الجيشان العظيمان للهجوم العام وللكارثة!

ومضى عمار بن ياسر يقاتل مع أمير المؤمنين (وكان كهلاً فى التسعين) حتى إذا دنا من عمرو بن العاص، صاح بأعلى صوته قائلاً: «يا عمرو، بعت دينك بمصر، تبًا لك تبًا، طالما بغيت فى الإسلام عِوجًا».

ثم التفت إلى عبيد الله بن عمر بن الخطاب (وكان مع معاوية) فقال له: «صرعك الله! بعت دينك من عدو الإسلام وابن عدوه!».

فقال: «لا، ولكنى أطلب بدم عثمان».

فقال عمار: «أشهد على علمى فيك، أنك لم تطلب بشيء من فعلك وجه الله عز وجل وإنك إن لم تقتل اليوم تمت غدًا، فانظر إذا أُعطى الناس على قدر نياتهم ما نيتك».

ثم رفع عمار بن ياسر رضي الله عنه يديه إلى السماء وقال مبتهلاً:

- «اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل الأمر لهم فادخر لهم بما أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم».

* * *

وكان عمار بن ياسر على رأس كتيبة لأمير المؤمنين، وكان ذو الكلاع من أصحاب معاوية على رأس الكتيبة المواجهة لعمار.. فقتلا كلاهما.

وجاء البشير يخبر معاوية وعمرو بمقتل عمار بن ياسر وذو الكلاع. فكبر معاوية من الفرحة وقال مهللاً: «ما أدرى بأيهما أفرح أكثر، بقتل هذا العبد الزنجى أو بقتل ذى الكلاع والله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى على، ولأفسد علينا أمرنا»!

وأقبل رجلان يختصمان إلى معاوية، أحدهما يحمل رأس عمار، وكل

منهما ينسب فضل قتله إلى نفسه، ويطلبان الأجر السخى من معاوية.

فابتسم عبدالله بن عمرو بن العاص ساخرًا فى مرارة وقال لهما:

«ليطلب كل واحد منكما نفسًا لصاحبه بقتل عمار، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قاتله وسالبه فى النار، وعمار تقتله الفئة الباغية)».

فقال معاوية مغاضبًا: «يا عمرو، ألا تنهى عنا مجنونك هذا؟!».

ثم التفت عبدالله إلى أبيه وقال له آسفًا: «يا أبتِ، قتلتم الرجل فى يومكم هذا، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال!».

قال عمرو مندهشًا: «ماذا قال؟!».

قال عبدالله[1]: «أنت لم تكن معنا يوم كنا نقوم ببناء المسجد النبوى الشريف فى المدينة، ومسح رسول الله التراب عن رأس عمار وقال له مشفقًا:

(عمار تقتله الفئة الباغية، الناكبة عن الطريق، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)!».

فالتفت عمرو إلى معاوية وقال له: «هل سمعت ما يقول عبدالله؟!».

فضحك معاوية حتى ارتج كرشه وقال:

- «إنما قتله من خرج به، قتله على بن أبى طالب!».

* * *

وعندما استحر القتل وغاصت الأقدام فى لجج دموية من الطرفين، انتفض أمير المؤمنين محسورًا، ونادى بأعلى صوته غاضبًا:

- «يا معاوية، ويحك! علام يقتل الناس بيننا!

هلم أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور»

فاحولت عين معاوية وابتل إزاره، فضحك عمرو وقال لمعاوية ساخرًا:

- «أنصفك الرجل!».

---

(١) وعبدالله بن عمرو بن العاص من السابقين الأولين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وقد شهد بناء المسجد النبوى مع رسول رب العالمين..

فقال معاوية: «ما أنصف، وإنك لتعلم أنه لم يبادر رجل قط إلا قتله!».

ونادى ابن الصباح وهو من رؤساء أهل الشام: «والله إنى يا أهل الشام لأظن أن الله قد آذن بفنائكم، ويحكم! خلو بين معاوية فليقتتلا، فأيهما قتل صاحبه ملِنا معه».

فلما سمع معاوية ابن الصباح، اندس فى آخر الصفوف، واختبأ وقال لمن حوله: «إننى لأظن ابن الصباح قد أصيب فى عقله!».

فقالوا له: «والله إنه لأفضلنا دينًا ورأيًا وبأسًا، ولكنك تكره مبارزة على».

فدفع معاوية «بُسر بن أرطأة» وهو شديد البطش، جبارًا، شديد الحقد على الإسلام، وأغراه بقتل على.. فبارزه علىٌّ فطرحه على الأرض جريحًا، فكشف الفاسق عن عورته، فانصرف عنه أمير المؤمنين متقززًا. فقام يجرى مذعورًا كالفأر!

وعاد أمير المؤمنين ينادى على معاوية حتى يخرج إليه ليبارزه، فدفع معاوية عمرو بن العاص لمبارزته، فأطاح على السيف من يده فتمدد عمرو على الأرض تحت قدمى أمير المؤمنين وقد بلل سرواله الأرض من الخوف، وهم أمير المؤمنين أن يقسمه نصفين لكن عمرو سارع وكشف عن عورته، فصرف أمير المؤمنين وجهه متقززًا، فهرول عمرو هاربًا مزعورًا،.. فضحك معاوية وبقى يضحك، وجسده المترهل يترجرج وقال لعمرو ساخرًا: «احمد الله وعورتك!».

* * *

فتقدم أمير المؤمنين على بغلته، فحمل، فحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتفض، حتى اقتربوا من خيمة معاوية، فهمَّ معاوية وعمرو على الفرار، ولم يبق إلا عدوة فرس وينتهى الأمر لصالح أمير المؤمنين فتستقيم له الخلافة، وأصبح النصر وشيكًا.

لكن المنافقين من شيعته أرادوا اغتيال النصر، هؤلاء المنافقين من الأعراب كانوا على اتصال منظم بمعاوية، يقبضون منه الأموال

والجوارى الجميلات، وهم خرجوا مع على إلى صفين لكن قلوبهم مع معاوية، مقبلين على دنياه الواعدة، زاهدين فى علم ودين أمير المؤمنين!

واجتمع كبير المنافقين من أصحاب على «الأشعث بن قيس» بعمرو بن العاص سرًا، فدبرا معًا لاغتيال النصر والمكيدة، فجاءوا بفكرة رفع المصاحف ليكشفوا الحرب عن معاوية، ويوقعون الفرقة فى جيش على.

(ولم تكن فكرة رفع المصاحف جديدة، ولا مبتكرة، فأمير المؤمنين أول من رفع المصاحف على أسنة الرماح لأصحاب الجمل، قبل نشوب القتال، داعيًا إلى السلم، ومحذرًا من إراقة الدماء، لكن أهل الشام رفعوها بعد نشوب القتال، ليكشفوا عنهم الهزيمة المحققة، ويستريحوا ويلتقطوا أنفاسهم ويرتبوا صفوفهم للجولة القادمة).

ورفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح، ودعوا لتحكيم كتاب الله عز وجل، ووقف القتال فورًا، فلما رأى أصحاب على المصاحف قد رفعت قالوا: «نجب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه»!

فقال أمير المؤمنين: «عباد الله، امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن سلمة وابن أبى سَرْح والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال! ويحكم!! إنهم رفعوها ثم لم يرفعوها ولا يعلمون ما فيها.. وما رفعوها إلا خديعة ودَهْنًا ومكيدة».

قالوا: «ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله».

قال: «فإننى إنما قاتلتهم ليدينو بحكم هذا الكتاب، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم، ونسوا عهده، ونبذوا كتابه، وأشعلوا نار الفتنة!».

فقال مِسْعَر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى ثم السنبسى فى عصابة معهم من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك:

- «يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل بك كما فُعل بابن عفان، إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه، والله لتفعلنها أو لنقتلنك بها»!

قال: «فاحفضوا عنى نهيى إياكم، واحفظوا مقالكم لى، أما أنا فإن تطيعونى تقاتلوا، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم».

وتوقفت الحرب، ووافق علىّ على التحكيم، كما أراد أهل الشام، حيث قالوا:

«نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله عز وجل، تبعثون رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه».

وقالوا: إنا اخترنا عمرو بن العاص.

فقال المنافقون من شيعة أمير المؤمنين: فإنا قد رضينا بأبى موسى الأشعرى.

قال أمير المؤمنين: فإنكم عصيتمونى أول الأمر، فلا تعصونى الآن، إنى لا أرى أن أولى أبا موسى!

فقال الأشعث وزيد بن حصين الطائى ومسعد بن فدكى:

- «لا نرضى إلا به، فإنه ما كان يحذرنا مما وقعنا فيه».

قال أمير المؤمنين: «ويحكم! هو ليس بثقة، لقد فارقنى وخذل الناس عنى، ولكن هذا عبدالله بن عباس أوليه ذلك».

قالوا: «لا يكون إلا أبا موسى!».

قال: «فقد أبيتم إلا أبا موسى؟!».

قالوا: «نعم».

فقال يائسًا مستسلمًا: «فاصنعوا ما شئتم!! أأعصى ويطاع معاوية؟!».

* * *

وثارت قلة فى جيش أمير المؤمنين ترفض التحكيم ووقف القتال بعدما كان النصر على بعد خطوة واحدة، وترى ضرورة مواصلة القتال، حتى ترد الباغين، وخرج أمير المؤمنين ليحاورهم، فراعه أنهم هم أنفسهم القراء الذين أجبروه على قبول التحكيم وفرضوا عليه أبى موسى الأشعرى!

وتعالت أصواتهم مدوية مجلجلة: «الحكم لله يا على لا لك!! لا نرضى بأن يحكم الرجال فى دين الله، إن الله قد أمضى حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا فى حكمنا عليهم!».

قال متعجبًا حزينًا: «ألستم أنتم الذين أجبرتمونى على ذلك وهددتمونى بالقتل؟!

قالوا: «قد كانت ذلة منا حين رضينا بالحكمين، فرجعنا وتبنا فارجع أنت يا على كما رجعنا، وتب إلى الله كما تبنا وإلا برئنا منك»

قال: «ويحكم! أبعد الرضا والميثاق والعهد أرجع؟!

أوليس الله تعالى قال: (أوفوا بالعقود)؟!»

قالوا: «إذن نبرأ منك!».

- 20 -

عاد معاوية إلى دمشق لم تزده خدعة التحكيم إلا قوة، وعاد علىّ إلى الكوفة ورجال جيشه منقسمون، يتشاتمون طوال الطريق، فئة تؤيد التحكيم وأخرى ترفضه، وثالثة تلعنه، ورابعة تبرئ من الطرفين (علىّ ومعاوية) ويحملانهما ما حدث لأمة محمد ﷺ ويحكمان عليهما بالكفر!

وقد خلفت صفين حوالى تسعين ألف قتيل، غير الجرحى! ففتت عضد الدولة الإسلامية وأحدثت فيها جرحًا لا يندمل.

ولم يلبث المنكرون لأمر التحكيم فى جيش على، أن نظموا أمرهم وخرجوا من الكوفة أرسالاً وكتبوا إلى إخوانهم فى البصرة فانضموا

إليهم وأعلنوا العصيان المدنى، بل وأعلنوا أكثر من العصيان، أعلنوا أن عليًا وأصحابه الذين قبلوا التحكيم قد كفروا لأنهم خالفوا أمر الله وحكموا الرجال فى كتابه. وحاول على عبثًا أن يحاورهم ويعيدوهم إليه.

وفى «دومة الجندل» اجتمع الحكمان (أبو موسى وعمرو) واتفقا أن يخلعا عليًا ويعزلان معاوية، ويردون الأمر شورى بين المسلمين، ليختاروا خليفة جديدًا، ثم لم يحددا الطريقة التى يتم بها اختيار الخليفة. ومن سيشارك فى التصويت، ولم يقدروا النتائج الوخيمة التى ستترتب على هذا الحُكم!

وظهر الحكمان على الملأ، ليعلنا أنهما قد اتفقا على ما فيه رضًا للمسلمين ثم قدم عمرو أبا موسى ليبدأ بإعلان ما اتفقا عليه. فقام أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه ثم أعلن أنهما قد اتفقا على خلع على ومعاوية ورد الأمر شورى بين المسلمين، وأمر الناس أن يستقبلوا أمرهم ويختاروا خليفتهم من يرضون!

ثم قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلعه مثله، ولكنى أثبت صاحبى!».

فقال له أبو موسى محترقًا من الغضب: «مالك! لا وفقك الله، غدرت وفجرت، إنما مثلك مثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث»!

فرد عليه عمرو ساخرًا: «إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا»!

وهاج القوم وماجوا، فأقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد فقنع عمرًا بسوطه. وقام محمد بن عمرو بن العاص فقنع شريحًا بسوطه، وأقبل الناس فحجزوا بينهما. فتفرقوا على غير شىء كأنهم لم يجتمعوا وانطلق أبو موسى فركب راحلته ورمى بها إلى بها مكة، حزينًا نادمًا وقد رأى نتيجة خيانته لأمير المؤمنين، وعدم حيطته من ابن العاهرة!

ورجع عمرو بن العاص إلى الشام، فدخل على معاوية يسلم عليه:

- «السلام عليك يا أمير المؤمنين!».

وشعر معاوية أن عمرو سيتطاول عليه بما حققه له، ويزهو بحضور ذهنه ومكيدته لأمة محمد ﷺ.

فأراد معاوية أن يصغر من شأنه، وأن يضعه فى مكانه، وفى الحجم الذى يريده له.. فضحك فارتجت تردهاته الهائلة، والتفت إلى عمرو وصفق بيديه.

وأشار إليه وهو يضحك!

فالتقت وجوه بنى أمية ورؤساء الشام من الحاضرين إلى عمرو بن العاص فضحكوا!!

وعجب عمرو.. فقال لمعاوية مندهشًا وقد تملكه الغضب:

- «مم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك!؟».

قال: «أضحك من حضور ذهنك عند إبداء سوأتك يوم ابن أبى طالب.. والله لقد وجدته منانًا كريمًا معك، ولو شاء أن يقتلك لقتلك»!

فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين.. أما والله إنى لعن يمينك حين دعاك لتبارزه فاحولت عيناك، وانتفخ سَحْرُك (رئتك) وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو فدع».

ولم يغضب معاوية، وأبدى لعمرو وللناس أن حلمه ورويته تسع ما يقوله عمرو، واستمر يضحك ويترجرج جسده السمين، وضحك الحاضرون، وارتجت ضحكاتهم مزلزلة أعمدة قصر الخضراء!!

- 21 -

لقد غدر عمرو غدرةً منكرة، اتفق مع أبى موسى على خلع الرجلين ثم لم يخلع منهما إلا واحدًا. جَارَ إذن عن العهد الذى أعطاه على نفسه فى الصحيفة، فسقط حكمه وسقط حكم صاحبه أيضًا.

وتفرق القوم على غير شىء كأنهم لم يجتمعوا. وكان الظافر فى هذا كله معاوية، فقد رفعت الحرب عن أصحابه وأتيح له أن يريحهم وأن

يستعد لاستقبال أمره أشد قوة وأمضى عزمًا وأعظم بأسًا وورط أصحاب على فى الخلاف والفرقة، واضطرهم إلى الفتنة، وجعل بأسهم بينهم شديدًا.

وقد حنق الصالحون من أهل الكوفة على هذا الغدر وأصحابه وجعلوا يستعدون للقتال، وأخفى الماكرون من المنافقين مكرهم وجعلوا يظهرون الاستعداد للحرب كغيرهم من الناس، ولكن الخوارج الذين كفروا عليًا وأصحابه، حالوا بينه وبين أن ينهض إلى الشام.

فقد خرجوا جهرًا ونشروا الفساد فى الأرض وقتلوا عبدالله بن خباب بن الأرت، وخباب من خيار الصحابة، وقتلوا نسوة كن معه، وجعلوا يستعرضون الناس ويذيعون الذعر ويكفرون عليًا وأصحابه. فأرسل علىّ رجلاً من أصحابه يسألهم عن هذا الفساد ويطلب إليهم أن يسلموا إليه أولئك الذين قتلوا خباب.. فلم يكد الرسول يدنو منهم حتى قتلوه!

فكره علىّ وأصحابه أن ينهضوا إلى الشام ويتركوا من ورائهم هؤلاء الخوارج يفسدون فى الأرض، ويستبيحون أموالهم وعيالهم وهم غائبون. فنهضوا إلى هؤلاء الخوارج، حتى إذا فرغوا منهم تحولوا إلى عدوهم من أهل الشام فحاربوهم وهم مطمئنين على ما وراءهم.

وقتلهم على فى النهروان، وكان عددهم ثلاثة آلاف إلا قليلاً، وقائدهم هو عبدالله بن وهب الراسبى ذى الثفنات.

ولم ينتبه على يومئذ، ولم ينتبه أحد من أصحابه، أن هؤلاء الثلاثة آلاف القتلى الخوارج، كانوا من أهل العراق، أكثرهم من الكوفة، وبعضهم من البصرة، وكل قتيل منهم كان من عشيرة، وكثير منهم كانت عشائرهم فى جيش على. فقد كان عدى بن حاتم مثلاً مع على فى النهروان، وكان ابنه زيد من الخوارج الذين قتلوا. وما أكثر الأبناء والأعمام وأبناء العم الذين قتل بعضهم بعضًا فى ذلك اليوم المشئوم. فشاع الحزن فى القلوب وتفشت نفوسهم كآبة لا تؤذن بخير!

وعندما دعاهم عليّ للنهوض إلى الشام، اعتل رؤساؤهم، وقالوا له: «قد نفذت السهام وتكسرت السيوف ونصلت الرماح، فأعدنا إلى مصرنا لنريح ونجدد أداتنا ثم ننهض معك إلى عدونا» ثم تسللوا أفرادًا وجماعات، حتى لم يبق فى المعسكر إلا عددًا يسيرًا لا يغنون عنه شيئًا، فاضطر على أن يدخل الكوفة ويفكر فى الاستعداد للحرب من جديد!!

فى نفس الوقت ازدادت قوة معاوية، فأرسل جيشًا لاحتلال الحجاز واليمن، بقيادة بُسْر بن أرطأة (وكان شديد الفجور سفاحًا.. لا يرحم طفلاً ولا شيخًا ولا امرأة. بذىء العداء للإسلام والمسلمين شديد الكره لأهل البيت) فأمره أن يقتل كل من يقول بإمامة علىّ!

وعندما كان جيش معاوية، فى طريقه إلى الحجاز واليمن، يقوده بُسْر بن أرطأة، أوقع فى الطريق مذابح رهيبة، يسجلها التاريخ الإسلامى بلون دموى قاتم. فقد ذبح ابن أرطأة كل من قابله من الأعراب، وسبى نساءهم وذبح أطفالهم، ثم دخل مدينة رسول الله، فحاصرها، وعندما دخلها، روع أهلها وأعمل فيها السيف، لا يرحم طفلاً ولا امرأة ولا شيخًا، ثم دخل مكة، ثم سار إلى اليمن، فدخلها وذبح طفلى عامل علىّ عليها عبيد الله بن العباس، أمام أمهما، فأغشى عليها، وكانت حاملاً، فبقر بطنها، ثم أحرق عليهم الدار!

وبعدما فرغ ابن أرطأة من ذبح ما شاء من شيعة علىّ؛ ساق النساء الجميلات ووزعهن على جنوده سبايا، وباع الباقى فى سوق العبيد، فكن أول مسلمات سبين فى الإسلام!!

وبذلك خضعت مكة والمدينة واليمن لمعاوية، وخرجت من يد على، ثم عاد جيش معاوية يغير على أطراف العراق، فأرسل معاوية جيشه إلى الأنبار مرة أخرى فنهبوا أموالها وقتلوا شيعة على وسلبوا ما طاب لهم من النساء!

ثم وجه معاوية جيشًا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، فقتلوا كل

من لقيهم من شيعة على، وذبحوا «محمد بن أبى بكر» عامل علىّ عليها وطافوا برأسه وجثته فى شوارع مصر، فكانت أول رأس يطاف بها فى الإسلام، وعندما طار الخبر إلى علىّ حزن حزنًا شديدًا لموت محمد بن أبى بكر هذه الميتة البشعة، وحزن لضياع مصر، وهو يعرف أن أهل مصر من شيعته وهم يحبون أهل البيت، وعندما علمت أمه أسماء بنت عميس بذبحه شهقت شهقة واحدة فسال الدم من حلمة ثدييها وبقيت تنزف دمًا حتى ماتت وهى تلعن معاوية وعمرو. وحين علمت أخته عائشة كظمت غيظها وتحجرت دموعها، حتى نزفت دمًا، ثم عاشت تبكى أخيها محمد، وتصرخ وهى تلعن معاوية وعمرو بن العاص. وظلت كلما تعثر قدمها تقول: تعسًا لمعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص.. وتعودت أن تدعو عليهما عقب كل صلاة. وتتضرع إلى الله عز وجل أن يعاقبهما على ما أحدثاه من جروح فى أمة محمد وعلى قتلهما لشقيقها محمد.

وضمت إليها أولاد محمد، وحرمت على نفسها الشواء أبدًا، فلم تأكله حتى ماتت[1].

* * *

وبينما أمير المؤمنين يعيش هذه المحنة القاسية، بضياع مصر والحجاز واليمن وخيانة الحكمين، ونفاق بعض أصحابه، وتفرق شيعته وظهور أمر الخوارج الذين حملوا السلاح عليه، أتته ضربة موجعة من داخل بيته الهاشمى، فقد هرب عبدالله بن العباس واليه على البصرة، إلى مكة، تاركًا البصرة لزياد تموج فى الفوضى. وقد حمل معه من مال البصرة ما اشترى به ثلاث جوارٍ مولدات حور وعاش معهن فى مكة وارفًا هانئًا، بعيدًا عن هموم ابن عمه وتقشفه!

---

(١) «محمد بن أبى بكر» ربيب على رضي الله عنه، رباه فى حجره منذ تزوج أمه أسماء أرملة أبو بكر، وأسماء كانت زوجة أخيه جعفر قبل أن يزوجها رسول الله لأبى بكر بعد وفاة زوجته أم رومان.

أخفق أمير المؤمنين فى بسط خلافته الراشدة على أقطار الأمة الإسلامية، ثم هو لم يخفق وحده، وإنما أخفق معه نظام الخلافة كله، بل ولم يخفق أمير المؤمنين ونظام الخلافة وحدهما، وإنما أخفقت معهما الثورة التى شبت أيام عثمان فى تحقيق أهدافها، لتحفظ على الخلافة الإسلامية إسماحها وصلاحها ونقاءها من شوائب الأثرة والعبث والطغيان والفساد.

لكن الزمن قد تغير، وضعف سلطان الدين على النفوس، وتغلب سلطان الدنيا وشهواتها. ولم يعد العصر عصر نبوة ولا خلافة راشدة، وصار الناس كما وصفهم أبو ذر ﷺ: «كان الناس وردًا بلا شوك فأمسوا شوكًا بلا ورد!».

وأطل على واقع المسلمين زمن جديد، وتبلورت فى حياتهم مفاهيم جديدة خاصة بعد التوسع المبالغ فيه فى الفتوحات، وهضم دولتى فارس وروما فى بوتقة الدولة الإسلامية، فتشكل فكر جديد وتجسدت أطماع وتطلعات جديدة، فأصبح الزمن «زمن الخلط بين الإسلام والكفر». فقد فتحت هذه الفتوحات على المسلمين بابًا ذا عذاب شديد من الشر والفتن!!

كل ذلك وأمير المؤمنين لا يريد أن يلتوى أو يُدّهن فى دينه، أو يتغير مع تغير الزمن، فأراد أن يحمل الناس على الجادة، ويعيدهم إلى طريق الخلافة الراشدة، ويسير فيهم سيرة عمر بن الخطاب، من الشدة والعدل والمساواة وتطبيق شريعة الله بلا تمييز بين سيد وعبد أو غنى وفقير، أو قرشى وعبد حبشى.

وسار أمير المؤمنين على نفس النهج الذى رسمه له ابن عمه وأستاذه رسول رب العالمين، لا يكذب ولا يخادع، لا يهادن ولا ييأس ولا تخفى منه خافية على أصحابه. يعلمهم الإسلام النقى الصافى كما أنزل على قلب

نبيه ﷺ، ويقسم بينهم الأموال بالسوية، ويحملهم على الطريق المستقيم، لا يحيد عنه طرفة عين.

أراد أن يقاوم هذا التيار الجارف من الفساد، بعد ثراء المسلمين وفتح الدنيا ذراعيها لهم بالأموال والجوارى والأطماع والمفاهيم الجديد المشوقة والمضللة.. لكن مَنْ ذا يستطيع أن يقاوم نزوات النفس البشرية وشهواتها وأطماعها فى زمن الشهوة والأطماع، فعاش أمير المؤمنين بينهم كرجل غريب يتكلم فلا يسمعه إلا نفر قليل من أصحابه لا يغنون عنه شيئًا.. وجعل الناس ينظرون إليه فى كثير من الإجلال والإكبار، ولكن فى كثير من الرفق والرثاء أيضًا. يجلونه لمكانه من النبوة وعلمه بها، ويرفقون به ويرثون له لأنه يمثل جيلاً قديمًا قد انقضت أيامه أو أوشكت أن تنقضى.

من أجل ذلك وضع المسلمون المقبلون على الدنيا الجديدة، التى كانت تفتح لهم ذراعيها، دين أمير المؤمنين تحت أقدامهم، وتركوه وراء ظهورهم، مقبلين على دنيا معاوية وشهواتها بقلوب مفتوحة يملؤها الجشع والأمل والأنانية والانحراف!

* * *

قبل صلاة الفجر، جلس أمير المؤمنين وحده فى جامع الكوفة، وقد ضاق صدره من شدة الغيظ، وصار يستعجل لقاءه الأبدى برسول الله وفاطمة فى جنة الخلد، وكان رسول الله قد أنبأ بأنه سيموت مقتولاً وأن قاتله أشقى هذه الأمة، وكان رضي الله عنه إذا اشتد به الغيظ من الناس صرخ فيهم قائلاً: «ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذا (ويشير إلى لحيته ورأسه) خضاب دم لا خضاب عنبر».

ترقرقت دموع الندم فى عينى أمير المؤمنين، الندم على اليوم الذى قبل فيه بيعة المسلمين، لم يحسب أنه سيصل إلى هذا الطريق المسدود. نعم، كان يعرف أنه يتولاها مع أشرار لا ينفع معهم خير، وأنه يستقبل

أمرًا ذا وجوه وألوان لا تثبت عليه العقول، فتولاها محملة بالفتن والألغام التى زرعها ولاة عثمان المفسدين فى جميع أقطار المسلمين. لكنه أمل أن يحملهم إلى الطريق المستقيم ويعود بهم إلى سيرة أبى بكر وعمر. بل ويعود بهم إلى عصر النبوة نفسه، بصفائه ونقائه!

وارحمتاه لك يا أمير المؤمنين!! فماذا جنيت لنفسك ولأهلك من الخلافة؟! إلا التعب والشظف والحزن والعذاب، كان عليك أن تعيش حياتك آمنًا هانئًا سالمًا، وكفى ما عانيت وعانت بنو هاشم جميعًا فى سبيل إظهار هذه الدعوة المشرقة.

كان يكفيك أنك إمام هذه الأمة، ووارث علم الرسول، وصاحب رايته، والمبين لأمته ما اختلفوا فيه من بعده، وكان يكفيك أنك باب علم النبوة؟! كان لزامًا عليك أن تنشر علمك فى الآفاق، بعيدًا عن مفاسد السياسة التى أنهكت قواك، وأوجعتك همًا، وحرمت الأمة من فهمك للقرآن وفقهك ودينك.

أما كان يكفيك أنك علىّ بن أبى طالب، زوج فاطمة عليها وعلى أبيها الصلاة والسلام، وأنك الأب الأكبر لذرية المصطفى الطاهرة، وأن الحق والقرآن معكم أينما دار، فرسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا، كتاب الله وعترتى أهل بيتى».

لقد ظلمتك الدنيا يا إمام، وظلمت أولادك من بعدك، وكلنا يبرأ إلى الله تعالى مما وقع عليكم من ظلم ونبرأ إلى الله تعالى ممن ظلمكم وتجرأ على إيذائكم.

وارحمتاه لك يا إمام!!.. كانت شيعتك من أهل العراق، وهم عصب جيشك، من الأعراب الذين يميلون إلى الفوضى والحرية المطلقة؛ وطريقتك المتسامحة فى الشورى أطمعتهم فيك، وأطمعهم فيك حلمك وعفوك وصراحتك، فلم يعد يهابك منهم أحد، فلماذا لم تأخذهم بشدة عمر.

لقد ملكوا عليك أمرك، وما كنت تملكهم، فأكرهوك على الحرب، وأكرهوك على التحكيم، ثم اختلفوا عليه وخذلوك، وها هم وجوههم ورؤساءهم يفدون على معاوية بن أبى سفيان سرًا، أو يكتبون إليه، يقبضون منه الرشاوى، وتصلهم منه العطايا والهدايا والجوارى الجميلات، حتى أصبحوا يحاربون معك وقلوبهم مع معاوية، يتطلعون إلى دنياه الواعدة وإغرائه لهم بالثراء والمناصب العليا فى المملكة الجديدة، فماذا يحملهم على دنياك وزهدك فيها، ومساواتك لهم بالعبيد، وتقسيم الأموال بين الناس بالسوية، وحملهم على الطريق المستقيم، طريق الله الذى لا يعرف اعوجاجًا ولا التواء، ولا مكان فيه لأطماع ولا جشع ولا تفرقة بين الأجناس.

أتُعصى يا إمام ويطاع معاوية بن أبى سفيان؟!

كان معاوية بن أبى سفيان إذا أمر أهل الشام أطاعوه دون أن يجمجموا أو يجادلوا، وكان يحتفظ بسره ولا يظهر خططه إلا ما أراد أن يظهره عليه من خاصة العرب، بينما كانت أمورك كلها تدبر وتبرم وتقطع على الملأ، لا تخفى على أصحابك منك خافية مهما يكن خطرها، وكان هذا يغرى بك عدوك وصديقك، حتى إنهم كانوا يدسون لك من يقطع عليك خطبك فى المسجد، وهم آمنون بطشك وعقابك!

* * *

ووارحمتاه لك يا عثمان!! لقد كبر سنك وضعفت وشخت ورققت فملك عليك أقاربك المحدثى عهد بالإسلام أمرك.. فملكتهم رقاب المسلمين والخير فى غيرهم، فأفسدوا وأضلوا وظلموا فأشعلوا الثورة عليك.. وطالب الثوار بإقصائك، وترك الأمر لمن يقوى عليه، لكنك رفضت التنحى وتمسكت بالحكم مهما تكن العواقب، ونصحك كبار الصحابة بخلع نفسك ورد الأمر شورى بين المسلمين، فلم ينفعك

نصحهم إلا إصرارًا وعنادًا.

وبدأ معاوية بن أبى سفيان ابن عمك، والذى وليته الشام كله، وتركته يتصرف فيه بلا مساءلة، فأسس هناك مُلكًا واشترى رؤساء القوم، فدانوا له جميعًا بالطاعة.. بدأ فى تنفيذ المؤامرة التى نسج خيوطها مع شياطينه بمكر وخبث وإتقان، فأرسل مرتزقة يندسون وسط الثوار الغاضبون، الناقمون على سياستك، الهمجيون فى اندفاعهم، فيصبون الزيت على النار، فتموج الثورة اشتعالاً، فيندسون خفية إلى دار الخليفة فيقتلونه، ويهربون بقميصك الذى قُتِلتَ فيه فينشره معاوية على منبر جامع دمشق، ويحشد تحت لوائه الحشود، فيبايعه رؤساء الشام المرتشون وعلماءها المضللون بالطلب بدم عثمان، فتكون كلمة حق أراد بها تحقيق أطماعه فى الوصول إلى المُلك. وبذلك يحقق حلم أبيه أبو سفيان وأمه هند، فيجعل أمة محمد ﷺ تحت قدمهم ورئاستهم، بعد سقوط دولتهم الوثنية فى مكة.

وارحمتاه لك يا عثمان من حساب الله تعالى!! لقد حَمَّلك ولاتك أوزارًا ما كان مثلك ليحملها، وكم حذرتك من معاوية وغيره من ولاتك المحدثين، الذين دخلوا فى الإسلام متأخرين، كارهين مكرهين، ولم يدخل الإيمان قلوبهم، ولم يتشربوا دعوة رسول الله بعد، ولم تهدأ نعرات الجاهلية المتأججة فى نفوسهم، ولا حقدهم الدفين على السابقين من المهاجرين والأنصار، ولا كرههم للإسلام ورسول الإسلام، وقد حاربوه بكل قوتهم فانتصر عليهم ووترهم جميعًا!

نعم، لقد عيَّن عمر بن الخطاب معاوية أميرًا لمدينة دمشق ليرضى بنى أمية، لكن معاوية كان يخاف عمر أكثر من عبد يخاف سيده، وكان عمر يأخذه بالشدة ويحاسبه ويراقبه. أما أنت يا عثمان فقد جعلت له الشام كله وتركته يقطع الأمور دون الرجوع إليك، ونسيت أن معاوية من

الطلقاء الذين لا تجوز ولايتهم شيئًا من أمور المسلمين[1].

وقد واجه عبد الله بن عباس معاوية بذلك فأرسل إليه: «أما أنت يا معاوية فزينت له (لعثمان) ما صنع، حتى إذا حوصر وطلب نصرك، أبطأت عنه وتثاقلت وأحببت قتله وتربصت لتنال منه ما نلت!».

وعندما نال معاوية ما نال، لم يأت ذكر دم عثمان على لسانه ونسى ما كان يدعو إليه!

على ماذا يزهقون كل هذه الأرواح، ويُسفكون كل هذه الدماء، ويمثلون بكل هذه الجثث؟! على المُلك! لعنة الله على المُلك الذى يبنى قلاعه على أشلاء المستضعفين! فالدنيا لا تساوى عند أمير المؤمنين ورقة توت تقضمها جرادة، وقد سمع ابن عمه ﷺ يقول إنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوى شيئًا ما سقى الكافر منها شربة ماء، وما جعل أولاد أبى سفيان يملكون أمر المسلمين وما جعل رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام مهرًا لبغى من بغايا بنى إسرائيل!

وتدركه رحمة ابن عمه رسول الله ﷺ فتدمع عينيه ويثور فى داخله نشيج مكتوم، وتغفو عينيه غفوة قصيرة، فيراه فى منامه يسأله:

- «يا على.. كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة ورغبوا فى الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لمًا، وأحبوا المال حبًا جمًا؟!».

فيجيبه أمير المؤمنين بنبرة حزينة: «إذن أتركهم لدنياهم، وأذرهم وما اختاروا، وأختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأصبر فى ذلك حتى ألحق بكم!».

فيربت رسول الله على كتفه، ويمسح العرق من جبينه ثم يقول له:

- «يا على.. أنت المظلوم بعدى، ومن ظلمك فقد ظلمنى، ومن أنصفك

---

(١) الطلقاء، هم أهل مكة من المشركين الذين قال لهم رسول الله: إذهبوا فأنتم الطلقاء وقد كانوا له سببًا بعد سقوط دولتهم وهزيمتهم، لكن الرسول عفا عنهم وأطلق سراحهم.

فقد أنصفنى، ومن جحدك فقد جحدنى».

ويتفجر قلب أمير المؤمنين بكاءً مرًا ويقول: «لكنى سئمت دنياهم يا رسول الله، مللتهم، وكرهتهم، ثم يمسح دموعه وتهدأ فورته قليلاً ويستدرك قائلاً:

- أتذكر يا رسول الله يوم كنتُ مريضًا مرضًا شديدًا، فجاء أبو بكر وعمر يعودانني، فقال أبو بكر: إن عليًا ميت من مرضه هذا، فقلت لهما: إن عليًا لن يموت من مرضه هذا، وهو لن يموت، ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ!؟

ولولا هذه الفئة الباغية التى شقت وحدة الأمة وورطتها فى حرب أهلية دامية أنهكت قواها، لأصبحت الأرض كلها تخضع لسلطان المسلمين، ولأشرق نور الإسلام على العالمين.

ويمسح عليًا وجهه المبتل وعينيه الدامعتين بذيل قميصه الذى اشتراه بثلاث دراهم من حُرِّ ماله، يوم بايعوه أميرًا للمؤمنين وفى الثوب عدة رقع، فقد كان أزهد الناس، وهو يملك بيت مال المسلمين وينفق ماله الخاص فى الخيرات ولا يُبقى إلا ما يسد رمقه هو وأولاده.

ويمسح رسول الله على رأسه ويسأله: أتعلم من أشقى الأولين؟!

أجاب بصوت مختنق: عاقر الناقة.

فسأله رسول الله: ألا تعلم من أشقى الآخرين؟

قال: لا!

فقال رسول الله ﷺ: أشقى الآخرين، الذى يضربك على هذه فيخضب هذه بالدم (وأشار إلى رأسه ولحيته).

* * *

امتلأ الجامع بالمصلين من أهل الكوفة، وجلسوا يتأملون إمامهم خاشعين وإمامهم متكئ على إحدى يديه، يتصبب عرقًا، وهو يرتجف!

وبعدما أمَّهُم للصلاة، جلس يعلمهم أمور دينهم بصوته الجهورى

المبحوح، ويقول لهم: «سلونى قبل أن تفقدونى» فبكوا حتى علا نشيجهم.

فسأله رجل: أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام، أكان بقضاء وقدر؟!

فقال الإمام على: والذى خلق الحبة وبدأ النسمة ما هبطنا واديًا ولا علونا جبلاً إلا بقضاء وقدر.

فقال الرجل: عند الله أحتسب عنائى، ما لى من الأجر شىء!

فقال أمير المؤمنين: بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون، وفى منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين.

فقال الرجل: وكيف ذلك القضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟!

فقال: لعلك تظنه قضاء واجبًا وقدرًا حتمًا؟! لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء، ولا المسىء بعقوبة الذنب أولى من المحسن! تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، أهل العماء عن الص واب فى الأمور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله تعالى أمر تخييرًا، ونهى تحذيرًا ولم يكلف مجبرًا ولا بعث الأنبياء عبثًا! ﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾.

فقال الرجل: فما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟

قال أمير المؤمنين: أمر الله بذلك وإرادته، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

فعجب الرجل من ذكاء وعلم أمير المؤمنين فأنشد قائلاً:

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته
يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسًا
جزاك ربك بالإحسان إحسانا

ثم عاد الرجل يسأل أمير المؤمنين قائلاً:

أليس كل شيء في علم الله؟

قال أمير المؤمنين: «مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم، والأرض التي أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب، كذلك لا يحملكم علم الله عليها».

ثم قال أمير المؤمنين: «من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله لا يطاع استكراهًا، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء الله حال بينهم وبين ما فعلوا فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الله الخلق على الطاعات، لأسقط عنهم الثواب، وله أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب. ولو أهملهم لكان عاجزًا في القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم»[1].

* * *

ثم إن أمير المؤمنين، لما بلغ غيظه مداه، وغضبه على أهل العراق منتهاه لتخاذلهم في صد الفئة الباغية، الناكبة عن الطريق، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه لهم قبيل مقتله، ووقف أحد أصحابه يتلوه:

«... أما والله لوددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم، ولوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدري غيظًا، وجرعتموني الأمرَّين أنفاسًا، وأفسدتم عليَّ رأيي

---

(١) وكان أولاد أبي معيط يروجون بين الناس، أن كل ما حدث منهم من ذبح للرجال والأطفال وسبي النساء، والغارة على قوافل الحجاج وقتلهم وسرقتهم، ومن خروج على وحدة الأمة والجماعة وقتال خليفة المسلمين كله بقضاء الله وقدره!!

بالعصيان. حتى قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! هل كان فيهم رجلاً أشد لها مراسًا، وأطول مقاساة منى؟! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا قد عدوت فى الستين، ولكن، لا رأى لمن لا يطاع!».

وبعد صلاة الجمعة، يخرج لهم، ويضع المصحف على رأسه ليشهده عليهم ويقول بصوت مجلجل حزين مقهور:

«اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه، فأعطنى ثواب ما فيه، اللهم إنى مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى وحملونى على غير طبيعتى وخلقى، وأخلاق لم تكن تعرف لى!

اللهم فأبدلنى بهم خيرًا منهم، وأبدلهم بى شرًا منى!!».

* * *

وفى شهر رمضان سنة أربعين هجرية طعن نفر من الخوارج أمير المؤمنين وهو فى طريقه إلى جامع الكوفة لصلاة الفجر، بخنجر مسموم، فأردوه قتيلاً. ثأرًا لقتلاهم فى النهروان.

مات أمير المؤمنين بعدما حكم خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، تجرع فيها كل ألوان الغيظ، مات وهو يوصى أولاده وبنى هاشم، ألا يسفكوا به دمًا، ولا يقتلوا به إلا الرجل الذى قتله، ولا يمثلون به فإن رسول الله ﷺ نهى عن المثلة ولو بالكلب العقور.

وعندما طلب منه المسلمون استخلاف ابنه الحسن، قال: «لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم بأموركم أبصر».

فقالوا له: «وماذا تقول لربك، إن لقيته دون أن تستخلف علينا؟!».

قال: «أقول له: تركتهم دون أن أستخلف عليهم كما ترك رسول الله المسلمين دون أن يستخلف عليهم».

ثم لم ينطق إلا بـ«لا إله إلا الله» حتى قبض رضي الله عنه. وغسّله ابناه الحسن والحسين وابن أخيه عبدالله بن جعفر زوج ابنته زينب وكُفِن فى

ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وكبر عليه الحسن تسع تكبيرات، وقالت عائشة لما بلغها قتله: لتصنع العرب ما شاءت بعده، فليس لها من ينهاها.

وقام الحسن بن على خطيبًا فقال للناس:

«لقد قتلتم الليلة رجلاً فى ليلة نزل فيها ا لقرآن، وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام وفيها قتل يشوع بن نون فتى موسى عليه السلام، والله ما سبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحد يكون بعده، والله إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه فى السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو سبعمائة، أرصدها لخادمه!».

- 23 -

بايع أهل العراق الحسن بن على بالخلافة، فاشترط عليهم: «إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت»! فالحسن بن على يعرف أن خصمه فى الشام يستموت على المُلْك، وإنه سيحارب حتى آخر قطرة من دماء المسلمين، فالقضية بالنسبة لهم قضية دنيوية، قضية مصير، قضية حياة أو موت، لذلك فهو مستعد من أجل الملك والسلطان أن يفعل أى شىء وينتهك كل حُرْمة! فخاف الحسن رضي الله عنه أن يجتث المسلمون من وجه الأرض، فأراد أن يكون للدين نازع، فلو أنه فتح باب الحرب بينه وبين ابن أبى سفيان، فلن تنتهى إلا بفناء المسلمين وذهاب ريحم إلى الأبد.

ثم إنه يضع نُصْب عينيه نبوءة جده ﷺ عندما قال بأعلى صوته وهو يحمله على كتفه فوق المنبر: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين».

من أجل ذلك صالح الإمام الحسن معاوية بن أبى سفيان على هذه الشروط: «هذا ما صالح عليه الحسن بن على معاوية بن أبى سفيان: صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب

الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين؛ وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى ألا يبغى الحسن بن على غائلة سرًا ولا علانية، ولا يخيف أحدًا من أصحابه».

غادر الإمام الحسن العراق، وارتحل بأهل بيته إلى المدينة، وترك معاوية فى الكوفة يدبر أمر دولته الجديدة كما يشاء. وقد بكى أهل العراق حين وداعهم لأهل البيت كما لم يبكوا من قبل.

وانتهى الحسن إلى المدينة فلقى من أهلها إثر وصوله إليها من لامه فى الصلح كما لامه فيه أهل الكوفة، فكان يقول للائميه: «كرهت أن ألقى الله عز وجل فإذا سبعون ألفًا أو أكثر تشخب أوداجهم دمًا، يقول كل منهم: يا ربى، فيم قتلت؟!».

ولم يكد الحسن يترك الكوفة فى طريقه إلى المدينة حتى أظهر معاوية لأهل العراق شدة بعد لين، وعنفًا بعد رفق، وأعلن على الملأ أنه يضع المواثيق والعهود التى سبق ووعدها أهل العراق تحت قدمه!

وأراد معاوية تحويل الخلافة إلى ملك عضود، وتراثًا بعده لآل أبى سفيان، وملكًا يتوارثونه واحدًا تلو الآخر.. وكان يفكر دائمًا فى ابنه يزيد فيرى أن الحسن بن على هو الحائل بينه وبين أطماعه، فهو قد شرط على نفسه أن ولاية العهد له بعد وفاته، (والحق أن الحسن لم يقبل منه ذلك وإنما اشترط عليه أن تكون شورى بين المسلمين) وكان الحسن يرى أن المسلمين لن يعدلوا به بعد وفاة معاوية أحدًا.

فدعا معاوية لمبايعة يزيد فى حياته وليًا للعهد، فجاءته وفود الأمصار يقبضون منه الرشاوى والجوارى فتحدثوا بفضل يزيد على غيره من أولاد الصحابة، وبايعوه أميرًا للمؤمنين بعد وفاة أبيه معاوية.

وحاول الأحنف بن قيس إقناع معاوية أنه يرتُقُ فى الأمة رتقًا لا يلتئم، وأنه يضع رِجْله فى غُرْز بعيد كل البعد عن أمة محمد ﷺ، وانبرى

إليه قائلاً:

«يا أمير المؤمنين، أنت أعلمنا بليله ونهاره، وبسره وإعلانه، فإن كنت تعلم أنه خير لك قوله واستخلفه فإنه ليس كذلك فى الآخرة إلا ما طاب، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت أعلم من هما وإلى ما هما وإنما علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير!».

لكن دعوة معاوية باءت بالفشل الذريع، ذلك لوجود الحسن بن على حيًا، وحقه معروف فى الخلافة بناء على شروط الصلح الذى صالح عليه معاوية وتنازل به عن حقه الشرعى، على أن يعود إليه حقه بعد وفاة معاوية.

فدبر معاوية للتخلص منه، فدس له السم فى الطعام، فمات منه سنة خمسين هجرية!

وكان القتل بالسم من أدوات حكم معاوية وعمرو بن العاص؛ فقد انتشر فى عهدهم بشكل غريب، وبرع الأمويون فى قتل خصومهم بالسم، فكان معاوية وعمرو يقولان ساخرين «إن لله جنودًا من عسل!» فقد قتلوا بالسم كثيرًا من خيار الناس، وقتلوا بالسم حُجْر بن عدى وأصحابه، وحُجْر من قادة الأنصار وكبار الصحابة، وكذلك دسوا السم للأشتر وهو فى طريقه لولاية مصر، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، كما دسوا السم لسعد بن أبى وقاص عندما امتنع عن سب على بن أبى طالب فوق المنبر، كما كان متبعًا فى طقوس بنى أمية!

وفى اللحظات الأخيرة دخل عليه أخوه الحسين، فلما نظر إلى ما يعانيه أخوه من ألم اغرورقت عيناه بالدموع، فنظر إليه الحسن فقال له: «ما يبكيك يا أبا عبدالله»؟!

قال: «أبكى لما صنع بك».

فقال الحسن بصوت متقطع: «لقد ألقيت طائفة من كبدى، وإنى

سقيت السم مرارًا فلم أسق مثل هذه المرة!».

ويمسح الحسين دموعه، ويسأل أخاه قائلاً: «يا أخى، من تتهم؟!.

قال فى مرارة: «لم؟! لتقتله؟!».

قال: «نعم».

قال: «إن يكن الذى أظن، فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً، وإلا يكن، فما أحب أن يقتل بى برىء».

ثم التفت إلى أهله قائلاً: «أخرجونى إلى صحن الدار، أنظر فى ملكوت السموات» فحملوه إلى صحن الدار، ورفع رأسه إلى السماء وبقى يناجى ربه متضرعًا، وقائلاً: «اللهم إنى أحتسب عندك نفسى، فإنها أعز الأنفس على، لم أصب بمثلها، اللهم آنس صرعتى، وآنس فى القبر وحدتى».

ثم حضر فى ذهنه غدر معاوية به ونكثه للعهود، فقال فى مرارة: «لقد حاقت شريته، والله ما وفَّى بما وعد، ولا صدق فيما قال» وأخذ يتلو القرآن ويبتهل إلى الله ويناجيه حتى فاضت نفسه الذكية.

فلما أراد الحسين أن يدفن أخيه فى حجرة جده رسول الله ﷺ، تصدى له مروان بن الحكم «شيخ بنى أمية» وعامل المدينة لمعاوية وقال:

- «يارب أيدفن عثمان فى أقصى المدينة ويدفن الحسن مع الرسول ﷺ، لا يكون ذلك أبدًا وأنا أحمل السيف!».

وقامت معه بنو أمية وسعيد بن العاص، فمنعوا الحسين من دفن أخيه الحسن فى حجرة الرسول، وقامت بنو هاشم لتقاتلهم.

فبكى رجل من الصحابة وقال: «والله ما هو إلا ظلم، يمنع الحسن أن يدفن مع رسول الله ﷺ، إنه لابن رسول الله.. أرأيتم لو مات ابن لموسى، أما كان يدفن مع أبيه!».

وقال الحسين: «والله لولا عهد الحسن بحقن الدماء وأن لا أهريق فى أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا».

ولم يشهد جنازة الإمام الحسن أحد من بنى أمية!! لكن أهل المدينة خرجوا جميعهم لتشييعه، ولو طرحت فى الأرض إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان!

ودفن الحسن رضي الله عنه بجوار جدته فاطمة بنت أسد رضى الله عنها فى البقيع.

- 24 -

مات معاوية ابن أبى سفيان بدمشق سنة ستين، يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت خلافته تسع عشر سنة وثلاثة أشهر.. مات يوم مات وهو ابن خمس وثمانين سنة.

وكان معاوية قد قاتل عليًا على دم عثمان من جهة وعلى أن يرد الخلافة شورى بين المسلمين من جهة أخرى، فلما استقام له السلطان نسى ما كان يقاتل عليه. مات معاوية وفى عنقه دماء المسلمين التى أسرف فى سفكها، مات وفى عنقه وحدة المسلمين التى مزقها، مات وفى عنقه الشورى التى ذبحها، مات وفى عنقه الشريعة الإسلامية التى أماتها!

وكان معاوية قد بايع بولاية العهد لابنه يزيد، وأكره الناس عليها، وأكره الحسين كما أكره غيره من شباب الصحابة، على السكوت عن هذه البيعة التى كانوا ينكرونها فى أنفسهم أشد الإنكار.

وكذلك استقر فى الإسلام لأول مرة هذا الملك الذى يقوم على البأس والبطش والخوف والديكتاتورية، والذى يرثه الأبناء عن الآباء، وأصبحت الأمة كأنها مِلْك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من أبنائه، فكان عاقبة ذلك وبالاً على المسلمين أى وبال وضاع العمل بالكتاب والسنة فى التراب!

أما الحسين بن على فقد أقام بمكة رافضًا بيعة يزيد غاضبًا لله

ولضياع عهد الخلافة، والعمل بالكتاب والسنة، ونقض شروط الصلح مع أخيه الحسن. ولم يكن يزيد يحتمل أن يعصه أحدًا وإنما كان يرى أن طاعته حق على الناس جميعًا، فمن خالفه فليس له إلا السيف!

وكان يزيد فتى من فتيان قريش صاحب لهو وعبث يحب الصيد، مسرفًا على نفسه فى لذاته، مضيعًا للصلاة، سكيرًا خمورًا!

فى هذه السنة وجه أهل الكوفة (شيعة أهل البيت) الرسل إلى الحسين، يدعونه أن يأتى الكوفة، ليكون إمامهم، فيما أزمعوا من خلع يزيد وإخراج عامله النعمان بن بشير.

وقد تكدست رسائل الكوفيين، وتتابعت رسلهم، جاء فى رسالة من رسائلهم:

«من المؤمنين المسلمين من أهل الكوفة، سلام عليك، فإنّا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدًا له كما بعدت ثمود.

وإنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن البشير فى قصر الإمارة لسنا نجتمع معه فى جمعة، ولا نخرج معه فى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وجاء فى رسالة أخرى: «لحسين بن على، من شيعته من المومنين والمسلمين، أما بعد، فحيّهلا، فإن الناس ينتظرونك، ولا رأى لهم فى غيرك، فالعجل العجل والسلام عليك».

فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب، وأمره أن يمضى إلى الكوفة ليتكشف الأمور، ويكتب إليه بحالهم وأمرهم ورأيهم.

فخرج مسلم حتى قدمها، ونزل على رجل من أهلها يقال له ابن

عوسجة، فلما تحدث أهل الكوفة بمقدمه ذهبوا إليه فبايعوه، بايعه منهم اثنا عشر ألفًا. فكتب مسلم إلى الحسين يخبره ببيعة أهل الكوفة ويأمره بالقدوم!

لكن عيون يزيد فى الكوفة لم يكونوا غافلين، فكتب إليه عبدالله بن مسلم، ثم كتب إليه عمارة بن عقبة بى أبى معيط، وعُمر بن سعد بن أبى وقاص.

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد، ليس بين كتبهم إلا يومان، دعا سرجون مولى معاوية، فاستشاره قائلاً: ما رأيك، فإن حسينًا قد توجه إلى الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يأخذ له البيعة، وقد بلغنى عن النعمان ضعف وقول سىء، وهذه هى الكتب التى أرسلها عيونى فى الكوفة».

فقال سرجون:

- أرأيت لو أن معاوية كتب لك عهدًا، أكنت آخذًا برأيه؟!

قال: نعم.

قال سرجون وهو يخرج كتابًا من ملابسه:

- هذا رأى معاوية، مات وقد أمر بهذا الكتاب، أن تضم المصرين (الكوفة والبصرة) إلى عبيد الله بن زياد.

فقرأ يزيد الكتاب المختوم، وعمل بما فيه، وضم الكوفة والبصرة إلى عبيد الله بن زياد (وكان جبارًا، فاجرًا، شديد البغض لأهل البيت، شديد الحقد على الإسلام).

* * *

ودخل عبيد الله بن زياد الكوفة فى وجوه من أهل البصرة، وما هى إلا ساعة حتى حاصرت الشرطة الدار، وتفرق أهل الكوفة عن مسلم فُرقًا، عندما رأوا ابن زياد يحاصره ويسوقه مكبلاً بالسلاسل من عنقه ويديه ورجليه، فدمعت عيناه وهو يتلفت حوله فلا يجد أحدًا من الثمانية عشر ألفًا الذين بايعوه بالأمس فقال فى مرارة: هذا أول الغدر!

قال له رجل من أهل الكوفة: أرجو ألا يكون عليك بأس!

قال مسلم: ما هو إلا الرجاء، أين أمانكم؟! إنا لله وإنا إليه راجعون!

فقال له الرجل:

- إن من يطلب مثل الذى تطلب إذا نزل به مثل الذى نزل بك لم يبك.

قال مسلم: إنى والله ما لنفسى أبكى، ولا لها من القتل أرثى وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفا، ولكن أبكى لأهلى المقبلين إلىّ.. أبكى لحسين وآل حسين.

وكان كتاب مسلم قد وصل إلى الحسين فى مكة، فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة ومعه أهل بيته!

وأمر ابن زياد أن يصعدوا بمسلم بن عقيل إلى أعلى قصر الإمارة، فألقوا به من فوق شرفة القصر فتهشمت عظامه، وبقى فيه رمق، فاحتزوا رأسه!

ثم قطعوا رأس هانئ بن عروة الذى كان مسلم يختفى فى داره وصلبوه فى سوق المدينة!

فلما قتل ابن زياد مسلمًا وهانئًا، بعث برأسيهما إلى يزيد بن معاوية فى دمشق وكتب له: «إن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عروة المرادى، وإنى جعلت عليهما العيون ودسست إليهما الرجال وكدتهما حتى أخرجتهما وأمكن الله منهما، فقدمتهما فضربت أعناقهما».

فكتب إليه يزيد بن معاوية يثنى عليه: «أما بعد، فإنك لم تعد أن كنت كما أحب، عملت عمل الحازم، وصُلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت، وصدقت ظنى بك ورأيى فيك وإنه قد بلغنى أن الحسين بن على قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن، وخذ على التهمة!».

ودنا الحسين من العراق، وقد أرصد له عبيد الله بن زياد وأمَّر رجلاً

من أشراف الكوفة، يقال له الحر بن يزيد، على ألف من الجند وأمرهم أن يلقوا الحسين فى مقدمه ذاك فيأخذوا عليه طريقه ويحولوا بينه وبين الذهاب فى أى وجه من وجوه الأرض، ولا يفارقوه حتى يأتيهم بأمره.

فلما لقيته خيل ابن زياد، وعلم بالغدر، أراد أن يرجع، فاعترضته الخيل وحازوه إلى كربلاء!

وما هى إلا ساعات حتى أرسل ابن زياد ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة عُمر بن سعد، وشمر بن ذى الجوشن وحصين بن نمير، وأعلمهم أنه يريد أن يرى الحسين جثة خرساء، هامدة، يعفرها التراب.!

وقد عرض الحسين على عمر بن سعد أن يختار خصلة من ثلاث: فإما أن يخلوا بينه وبين طريقه إلى الحجاز ليعود إلى المكان الذى جاء منه، وإما أن يسيروه إلى يزيد بالشام، ليكون بينه وبين يزيد ما يكون. وإما أن يخلوا بينه وبين الطريق إلى ثغر من ثغور المسلمين يكون هناك كواحد من الجند الذين يرابطون بإزاء العدو، له مثل ما لهم من العطاء وعليه مثل ما عليهم من الجهاد.

فأرسل عمر بن سعد بذلك إلى ابن زياد أمير العراق، فضحك ابن زياد وقال: «الآن.. الآن بعد أن علقت مخالبنا به، يريد النجاة ولات حين مناص!».

فقال الحر بن يزيد الحنظلى متعجبًا:

«ألا تقبلون من هؤلاء ما يعرضون عليكم، وتصدون على قتلهم بلا ذنب! والله لو سألكم هذا الترك والديلم ما حل لكم أن تردوه!!».

وقال الحسين للناس: «أيها الناس.. إن رسول الله ﷺ قال:

(من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بالفعل ولا بالقول، كان حقًا على الله أن يدخله مدخله) ألا وإن هؤلاء قد

لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غيَّر، فقد أتتنى كتبكم وقدمت على رسلى ببيعتكم، أنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن على وابن فاطمة، بنت نبيكم عليه الصلاة والسلام، نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهليكم، فلكم فىَّ أسوة حسنة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتى من أعناقكم، فلعمرى ما هى لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

* * *

وكتب عبيد الله بن زياد إلى قائد جيشه عُمر بن سعد: «أما بعد، فَحُلّ بين الحسين وأهله وبين الماء، فلا يذوقوا منه قطرة حتى يموتوا من العطش، كما صنع بالتقى الذكى المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان!!».

وكان ابن زياد قد كتب إلى شمر بن ذى الجوشن، وكان معروفًا بشدة البغض للإسلام ولأهل البيت: «إن خاض عمر بن سعد فى دماء أهل البيت فاسمع له وأطع.. وإن هو أبى فقاتلهم أنت، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلىّ برأسه!».

وأقبل ابن ذى الجوشن بجسمه الضخم كأنه البهيمة، تفوح منه رائحة نتنة، كان يختال على فرسه وهو مدرع فى كامل عدته، يدنو من الحسين وينظر إليه وعيونه تتوقد حقدًا وشرًا، ثم نادى بأعلى صوته فى وقاحة: يا حسين «استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة!!

فقال الحسين: من هذا!؟ كأنه شمر بين ذى الجوشن!

قالوا: نعم، أصلحك الله! هو هو.

فقال له الحسين: يا ابن راعية المِعْزَى، أنت أولى بها صليًا.

فقال مسلم بن عوسجة: يا ابن رسول الله، جُعلت فداك، أرميه بسهم فإنه قد أمكنني، وليس يسقط مني سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين وأفجر الفجار.

فقال له الحسين: لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم.

* * *

فلما دنا منه القوم يريدون قتله نادى بأعلى صوته:

«أيها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم علي، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وأعطيتموني النصف، كنت بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

فلما سمعت أخواته وبناته كلامه هذا صحن وبكين، فارتفعت أصواتهن، فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه علي وقال لهما: «أسكتاهن».

فلما سكتن، حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله وصلى على محمد وملائكته وأنبيائه وقال: «أما بعد، فانسبوني، فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن نبيكم ﷺ، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه!

أَوَليس حمزة سيد الشهداء عم أبي! أَوَليس جعفر الطيار الشهيد ذو الجناحين عمي! أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: أن رسول الله ﷺ قال لي ولأخي (هذان سيدا شباب أهل الجنة)! فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - فوالله ما تعمدت كذبًا منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن

ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبدالله الأنصارى، أو أبا سعيد الخدرى، أو سهل بن سعد الساعدى، أو زيد بن الأرقم أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لى ولأخى. أفما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى!!؟».

واستدرك الحسين قائلا: «فإن كنتم فى شك من هذا القول! أفتشكون أثرًا فى أنى ابن بنت نبيكم!! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة. أخبرونى، أتطلبوننى بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه».

فأعرضوا عنه، لا يكلمونه، وصدق فيهم قوله تعالى:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾. فنادى الحسين بأعلى صوته:

- «يا شبث بن ربعى، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث.... إلخ.. ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمَّت الحِمام[1]. وإنما تقدم على جند لك، فأقبل.

قالوا فى نفس واحد: «لم نفعل!!»

فقال الحسين: «سبحان الله! بلى والله، لقد فعلتم!

أيها الناس، إذ كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمن من الأرض.

فقال قيس بن الأشعث بن قيس:

- «أولا تنزل على حكم بن زياد أمير العراق؟!».

فقال له الحسين: «أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل بن أبى طالب، لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد. عباد الله، إنى عذت بربى وربكم أن ترجُمون، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

(١) الحِمام: المكان الذى يجتمع فيه الماء.

* * *

أناخ الحسين بن على عليهما السلام راحلته وأخذ ينظر إليهم فى ذهول، وهم مقبلين عليه مكشرين عن أنيابهم، رافعى سيوفهم وحرابهم، مسعورين مثل كلاب الحراسة!

فخرج إليهم زهير بن قيس على فرس له وافر الشعر فقال بأعلى صوته: «يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار! إن حقًا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة، وعلى دين واحد وملة واحدة، مالم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إنا ندعوكم إلى نصرة ذرية محمد ﷺ، وخذلان الطاغية بن زياد، فإنكم لا تدركون إلا بسوء سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخيل، ويقتلان أمثالكم وقرائكم».

فسبوه وأثنو على ابن زياد، ودعوا له، ثم قالوا: «والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير ابن زياد سِلْمًا!».

فقال لهم: «عباد الله، إن ولد فاطمة عليهم السلام أجمعين أحق بالود وبالنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمرى إن يزيد ليرضى منكم طاعة بدون قتله».

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وهو يقول غاضبًا:

- «أسكت، أسكت الله أناملك، أبرمتنا بكثرة كلامك!».

فرد عليه زهير:

- «يا ابن البوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تُحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزى والعذاب الأليم».

فضحك بن ذى الجوشن فى فجور وقال:

- «إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة».

فرد عليه زهير:

- أفبالموت تخوفنى! فوالله للموت معه أحب إلىّ من الخلد معكم.

والتفت زهير إلى الناس من جديد وقال فى حسرة: «أيها الناس، عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد ﷺ قومًا هراقوا دماء ذريته، وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبَّ حريمهم!!».

فناداه رجل من أصحاب الحسين: «يا زهير، إن الحسين عليه السلام يقول لك: أقبل فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ!».

* * *

عندما زحف عمر بن سعد بالجيش مطوقًا الحسين وأهله، قال له الحر بن يزيد: «أصلحك الله! أمقاتل هذا الرجل؟!

- «إى والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى!»

- «أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا؟!».

- «أما والله لو كان الأمر إلىَّ لفعلت، ولكن أميرك ابن زياد قد أبى ذلك!».

فضرب الحُرُّ بن يزيد فرسه، وخرج من الجيش لاحقًا بالحسين حتى مثل بين يديه، على مرأى من الناس، ثم قال له:

- «جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع، وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان. والله الذى لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدًا، ولا يبلغون منك هذه المنزلة فقلت لنفسى: لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم، ولا يرون أنى خرجت من طاعتهم، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التى يعرض عليهم. ووالله لو ظننت أنهم لا

يقبلونها منك ما ركبتها منك، وإنى قد جئتك تائبًا مما كان منى إلى ربى، ومواسيًا لك بنفسى حتى أموت بين يديك. أفترى ذلك لى توبة؟!».

قال الحسين عليه السلام: «نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك، ما اسمك؟!».

قال: «أنا الحر بن يزيد».

قال الحسين: «أنت الحر كما سمَّتك أمك، وأنت الحر إن شاء الله فى الدنيا والآخرة، انزل».

ثم إن الحر بن يزيد، عندما تاب بين يدى الحسين، وانضم إليه يواسيه بنفسه، نادى على قومه بأعلى صوته قائلاً: أيها القوم، ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من قتله؟!

قالوا وهم ينكسون رؤوسهم: هذا الأمير عُمر بن سعد فكلمه!

فكلمه بمثل ما كلمه به من قبل، وبمثل ما كلم به أصحابه. فلم يرق الأمير ولم يستجب.

فنادى الحر بن يزيد على أهل الكوفة قائلاً بصوت مجلجل يملؤه الحسرة: «يا أهل الكوفة، لأمكم الهَبَل والعُبْر إذ عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح فى أيديكم كالأسير، لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يدفع ضرًا، وصددتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجارى، الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه. وها هم أولاء قد صرعهم العطش. بئسما خلفتم محمدًا فى ذريته!

لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه».

فحملت عليه رَجَّالة لهم، ترميه بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين غارقًا فى دمه وهو يشعر بذنبه وخطيئته الرهيبة، عندما منع

الحسين من الرجوع وحيازته إلى كربلاء حتى وصلت جنود ابن زياد.

ووضع عمر بن سعد سهمه فى كبد قوسه، فرمى وهو يقول:

- اشهدوا أننى أول من رمى!

وحسين عليه السلام جالس أمام خيمته مُحتبيًا بسيفه، إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب جلجلة القوم فدنت من أخيها وقالت:

- يا أخى، أما تسمع الأصوات قد اقتربت!؟

فرفع الحسين رأسه وقال لها:

- إننى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقال لى «إنك تروح إلينا!».

فلطمت زينب وجهها وصرخت، وجعلت تقول: يا ويلتاه!

فقال: ليس لك الويل يا أُخيه، أسكتى رحمك الرحمن.

ثم دخلت لتمرض على بن الحسين، وكان راقدًا فى خيمتها يئن من الحمى. وتدانى القوم، وعلمت أن البلاء قد وقع، فجزعت ولم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها، وإنها لحاسرة حتى انتهت، فجعلت تقول:

- واثكلاه! ليت الموت أعدمنى الحياة! اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى وحسن أخى، يا خليفة الماضى وثمال الباقى.

فرق لها الحسين وقال لها: يا أُخيه، لا يذهبن حلمك الشيطان!

قالت: بأبى أنت وأمى يا أبا عبدالله، استقتلت نفسى فداك.

فرد غصته وترقرقت عيناه وقال:

- لو ترك القطا ليلاً لنام.

قالت:

- يا ويلتى، أفتغصب نفسك اغتصابًا، فذلك أفرح لقلبى، وأشد على نفسى!

ولطمت وجهها، وأهوت إلى جنيبها فشقته، ثم خرت مغشيًا عليها، فقام الحسين إليها فصب على وجهها الماء وقال لها:

- يا أُخيــة، اتقى الله وتعــزى بعــزاء الله، واعلمى أن أهل الأرض

يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذى خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده.

أبى خير منى، وأمى خير منى، وأخى خير منى، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة.

يا أُخيـة.. إنى أقسم عليـك فأبرى قسمى، لا تشـقى علىَّ جيبًا، ولا تخمشى علىَّ وجهًا، ولا تدعى علىَّ بالويل والثبور، إذ أنا هلكت.

* * *

فلما جَنَّ عليهم الليل، وأظلمت الأرض غضبًا وحزنًا، واختنقت النجوم من الدمع فى كبد السماء، وكان الجيش قد أمهل الحسين حتى الصباح، وفى الصباح يذبحونه هو وأهله مثلما تذبح الخراف!

قام الحسين وأهله الليل كله يصلون ويستغفرون ويتضرعون وخيل ابن زياد تمر بهم، تطوقهم وتحرسهم طوال الليل حتى لا يهرب أحد!

فلما رأى أصحاب الحسين الجيش يحيط بهم، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسينًا ولا أنفسهم، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه، فجاءه عبدالله وعبدالرحمن ابنا غرزة الغفاريان فقالا له: يا أبا عبدالله، عليك السلام، حازنا العدو إليك، فأحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك.

قال: مرحبًا بكما، أدنوا منى،

فدنوا منه وجعلا يقاتلان قريبًا منه.

وجاء الفتيان الجابريان، سيف بن الحارث بن سريع، ومالك بن عبدالله بن سريع، وهما ابنا عم، وأخوان لأم فأتيا حسينًا فدنوا منه وهما يبكيان، فقال عليه السلام: أى ابنى أخى، ما يبكيكما؟! فوالله إننى لأرجو أن تكونا من ساعة قريرى عين.

قالا: جعلنا الله فداك! لا والله ما على أنفسنا نبكى، ولكنا نبكى عليك، فنراك قد أحيط بك، ولا نقدر على أن نمنعك!

وجاء حنظلة بن أسعد الشبامى فقام بين يدى حسين وأخذ ينادى:

﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. يا قوم تقتلون حسينًا ﷺ ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾!

فقال له الحسين: يا ابن أسعد، رحمك الله، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين!

قال: «صدقت، جُعلتُ فداك، أنت أفقه منى وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟!».

قال الحسين: «رُوحٌ إلى خير من الدنيا وما فيها، إلى ملك لا يبلى»

قال: «السلام عليك يا ابن رسول الله ﷺ عليك وعلى أهل بيتك، وعرف بيننا وبينك فى الجنة».

قال الحسين: «آمين، آمين».

ثم قال عابس بن أبى شبيب: «يا أبا عبدالله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علىّ ولا أحب إلىّ منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشىء أعز علىّ من نفسى ودمى لفعلت، السلام عليك يا أبا عبدالله، أشهد الله أنى على هديك وهدى أبيك».

ثم قام بالسيف يدافع به عن الحسين، وبه ضربة على جبينه تزلف، حتى قتل.

كان آخر من بقى مع الحسين من أصحابه، سويد بن عمرو بن أبى مطاع الخثعى. وكان أول قتيل من بنى أبى طالب يومئذ على الأكبر بن الحسين بن على، وأمه ليلى بنت أبى مرة، وذلك أنه أخذ يشد على

الناس ويقول: «أنا على بن الحسين بن على، نحن ورب البيت أولى بالنبى، تالله لا يحكم فينا ابن الدعى».

فمر يشد على الناس بسيفه، فاعترضه مُرة بن منقذ فطعنه فصرع، واحتوله الناس فقطعوه بأسيافهم.

فاستعبرت عينا الحسين وجعل يقول: «قتل الله قومًا قتلوك يا بنى ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفاء!».

وخرجت زينب من خيمتها وكأنها الشمس الطالعة لشدة جمالها، وجعلت تنادى: «يا أخياه! ويا ابن أخياه!».

فجاءت حتى أكبت عليه، فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردها إلى خيمتها، وأقبل الحسين على ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احملوا أخاكم، فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الخيمة.

ثم رموا عبدالله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته فأخذ لا يستطيع أن يحرك كفيه، ثم رموه بسهم آخر ففلقوا قلبه.

فاعتوروهم من كل جانب، فحمل عبدالله بن قطبة الطائى ثم النبهان على عون بن عبدالله بن جعفر ابن أبى طالب فقتله. وحمل عامر بن نهشل التيمى على محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب فقتلوه. وشدوا على عبدالرحمن بن عقيل بن أبى طالب فقتلاه، ورموا جعفر بن عقيل بن أبى طالب بالسهام فقتلوه، وشدوا على القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب، فضربوا رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال يستغيث: «يا عماه»! فجلى الحسين كما يجلى الصقر ثم شد شدة ليث غضب، فضرب رجلا من جيش الكوفة بالسيف، فاتقاه بالساعد، فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تنحى عنه مذعورًا.

وقام الحسين على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه، وحسين يقول: «بُعدًا لقوم قتلوك»! ثم قال: «عز الله على عمك أن تدعوه فلا

يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك! صوت والله كثر واتره، وقَلَّ ناصره» ثم احتمله، ورجلى الغلام يخطان فى الأرض، وقد وضع الحسين صدره على صدره فجاء به حتى ألقاه مع ابنه على بن الحسين وغيره من القتلى الذين قتلوا من أهل البيت!!

* * *

ومكث الحسين طويلاً من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه، وكره أن يتولى قتله، لكن رجلاً من كنده يقال له مالك بن النسير من بنى بداء، أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له، فقطع البرنس وأصاب السيف رأسه، فامتلأ البرنس دمًا، فقال الحسين له: «لا أكلت بها ولا شربت، وحشرك الله مع الظالمين!».

فألقى الحسين ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتم، وقد أعيا وبَلَدَ.

ولما قعد الحسين أتى بعبد الله بن الحسين فأجلسه فى حجره، ومازال الصبى فى حجره، حتى رماه أحدهم بسهم فذبحه، فتلقى الحسين دمه، فلما ملأ كفيه صبه فى الأرض ثم قال: «رب إن تك حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين».

ثم سقط ولده أبو بكر على قدميه غارقًا فى دمائه بعدما أصابه سهم، وتبعه محمد بن على بن أبى طالب، سقط هو الآخر مضرجًا فى دمائه، وتكوما فوق جثث آل النبى الطافية فوق بركة من الدماء!

وقتلوا عبدالله بن على بن أبى طالب وحزّوا رأسه ورموا عثمان بن على بن أبى طالب بسهم، ثم شد عليه رجل من بنى أبان بن دارم فقتله، وجاء برأسه، ورمى رجل من بنى أبان بن دارم محمد بن على بن أبى طالب فقتله وجاء برأسه!

* * *

وعطش الحسين، اشتد عليه العطش وكاد يقتله، فدنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمى به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: «اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا، ولا تذر على الأرض منهم أحدًا».

وأقبل شمر بن ذى الجوشن فى نفر من عشرة جنود من أهل الكوفة نحو خيمة الحسين التى فيها حريمه، فمشى الحسين نحوه فحال الجيش بينه وبين رحله، فصرخ الحسين فى وجوههم:

- «ويلكم! إن لم يكن لكم دين! وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا فى أمر دنياكم أحرارًا ذوى أحساب، امنعوا رحلى وأهلى من طغامكم وجهالكم!» فقال شمر بن ذى الجوشن فى غرور: «ذلك لك يا ابن فاطمة».

وأقدم عليه بجنوده، فجعل شمر بن ذى الجوشن يحرضهم على قتل الحسين، وجعل يقول: «ويحكم! ماذا تنتظرون ثكلتكم أمهاتكم، أقتلوا الحسين!».

فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به إحاطة، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذته زينب لتحبسه، فقال لها الحسين: «احبسيه» لكنها لم تقدر على الغلام، وجاء يشتد إلى الحسين، فقام إلى جنبه.

فأهوى بحر بن كعب بن عبيد الله إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: «ياابن الخبيثة، أتقتل عمى!» فضربه بالسيف، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة فإذا بيده معلقة، فنادى الغلام: يا أمتاه!».

فأخذه الحسين فضمه إلى صدره، وقال: «يا ابن أخى اصبر على ما نزل بك، واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله ﷺ، وعلى بن أبى طالب وحمزة وجعفر والحسن، صلى الله عليهم أجمعين.

ثم رفع يديه إلى السماء وابتهل قائلاً: «اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فِرقًا، واجعلهم طرائق قددًا، ولا ترضى عنهم الولاة أبدًا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا».

فشد الحسين عليهم من جديد حتى انذعروا، وعليه قميص من خَزّ وهو معتم، ولم يره الناس مكسورًا قط، وقد قتل ولده وأهله وأصحابه أمام عينيه، والرجالة ينكشفون عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب!

وإنه كذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله أخته، وجعلت تقول: «ليت السماء تطابقت على الأرض!».

وقد دنا عمر بن سعد (قائد الجيش) من الحسين، فقالت: «يا عمر ابن سعد، أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه!».

فسالت دموعه على خديه وصرف وجهه عنها!!

والحسين يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقى الرمية، ويشد على الخيل، وهو يقول: «أعلى قتلى تحاثون! أما والله لا تقتلون بعدى عبدًا من عباد الله، أسخط عليكم لقتله منى، وأيم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون. أما والله أن لو قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى عنكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

ولقد مكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء، فنادى شمر بن ذى الجوشن فى الناس: «ويحكم ماذا تنظرون بالرجل! أقتلوه ثكلتكم أمهاتكم!»

فحملوا عليه من كل جانب، فضربت كتفه اليسرى ضربة.. ضربها زرعة بن شريك التميمى، وضرب على عاتقه، ثم انصرفوا وهو ينوء

ويكبو.

فحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعى فطعنه بالرمح فوقع، ثم قال لخولى بن يزيد: «احتز رأسه» فأراد أن يفعل فضعف فأرعد، فقال له سنان بن أنس: «فت الله عضديك، وأبان يديك!» فنزل إليه فذبحه واحتز رأسه، ثم دفع الرأس إلى خولى بن يزيد.

ووجد بالحسين عليه السلام حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة، وجعل سنان بن أنس لا يدنو أحد من رأس الحسين إلا شد عليه مخافة أن يغلب على رأسه، حتى أخذ رأس الحسين فدفعه إلى خولى.

وسُلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سرواله بحر بن كعب، وأخذ قيس ابن الأشعث قطيفته. - وكانت من خز - وكان يسمى بعدُ قيس قطيفة، وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بنى نهثل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بديل.

ومال الناس على الوَرْس والحلل والإبل فانتهبوها، ثم مالوا على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها!

وانكشف ستر بنات محمد ﷺ، وانتهكت حرمة حريم أهل البيت الأطهار.. ودخل عليهن الفجار، ينهبون حُليهن وثيابهن، ويكشفون ستورهن!!

ولم ينج من المذبحة الرهيبة إلا على بن الحسين، وهو غلام دون الحلم، كان مريضًا، طريح الفراش فى خيمة عمته زينب.

وإذا بشمر بن ذى الجوشن ورجاله يهمون بقتله.. فجاء عمر بن سعد أمير الجيش، ونهرهم عن قتل الصبى الباقى الوحيد من المذبحة، ونهرهم عن النساء.

ثم إن عمر بن سعد نادى فى أصحابه: «من ينتدب للحسين ويوطئه

فرسه؟» فانتدب عشرة: منهم إسحق بن حيوة الحضرمى، وهو الذى سلب قميص الحسين - فبرص بعده - وأحبش بن مرثد بن علقمة ابن سلامة الحضرمى، فأتوا فدهسوا الحسين بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره!!

وسرح «عمر بن سعد» برأس الحسين إلى ابن زياد، أرسلها مع «خولى بن يزيد» فأقبل بن خولى فأراد قصر الإمارة، فوجد باب القصر مغلقًا، فأتى منزله فوضعه تحت سرير فى منزله، وله امرأتان: امرأة من بنى أسد والأخرى من الحضرميين يقال لها النوار ابنة مالك بن عقرب. وكانت تلك الليلة ليلة الحضرمية فقالت له: «ما الخبر؟! ما عندك؟!

قال: «جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك فى الدار وتحت سريرك!».

قالت مرعوبة: «ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! لا والله لا يجتمع رأسى ورأسك فى بيت واحد أبدًا».

فلما أصبح غدا برأس الحسين إلى ابن زياد أمير العراق.

* * *

وقطفت رؤوس الباقين، فسُرح باثنين وسبعين رأسًا مع شمر بن ذى الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج وغزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد!

وأذن «عمر بن سعد» فى الجيش بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين وأخواته وعلى بن الحسين مريض، فلما مررن بالحسين وأهله وولده جثث خرساء، مقطعة الرووس، وممثلة شر مُثلة صحن ولطمن وجوههن، وقالت زينب وهى تلطم وجهها:

«يا محمداه، يا محمداه!، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمَّل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه! وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفى عليها الصبا!!».

* * *

عرضت أخوات الحسين وبناته ونساءه على عبيد الله بن زياد، فقال عبيدالله بن زياد لزينب بنت على شامتًا:

- «الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثكم!».

قالت: «الحمد الذى أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيرًا، لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر».

- «فكيف رأيت ما صنع الله بأهل بيتك؟!».

- «كتب علينا القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه، وتخاصمون عنده».

فغضب ابن زياد واستشاط، وهاج وماج، وهَمَّ أن يبطش بزينب عليها السلام، فقال له عمرو بن حُريث مهدئًا من فورته:

- «أصلح الله الأمير، إنما هى امرأة!

وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها!!».

وعاد ابن زياد ينظر إلى زينب وبقية أهل البيت وعيونه تتأجج حقدًا وشرًا، وقال وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «قد أشفى الله نفسى من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك!».

فجأة.. إرتاع ابن زياد، وتوقدت عيناه شررًا، وقد تحول عن زينب عندما رأى صبيًا من أهل البيت، فسألهم، فقالوا له إنه علىّ بن الحسين وهو الوحيد الناجى من المذبحة، كان مريضًا فى خيمة عمته زينب ونهرنا عمر بن سعد عن قتله، كما نهرنا عن النساء.

فسأله بن زياد مندهشًا: «أولم يقتل الله على بن الحسين؟!».

فقال الغلام: «كان لى أخ أكبراسمه على».

فقال ابن زياد للشرطى: «انطلقوا به فاضربوا عنقه!».

فتشبثت به عمته زينب فقال الغلام لابن زياد مستعطفًا:

- «ومَنْ توكل بهؤلاء النسوة؟!».

فتعلقت به زينب واحتوته فى صدرها وقالت: «يا ابن زياد، حسبك منا، أما رويت من دمائنا، وهل أبقيت منا أحدًا؟!».

ثم قالت: «أسألك بالله إن كنت مؤمنًا، إن قتلته أن تقتلنى معه» فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال:

- «عجبًا للرحم! والله إنى لأظنها ودت لو أننى قتلته أنى قتلتها، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك».

وأمر ابن زياد بنساء الحسين فجهزن، وأمر بعلى بن الحسين فجعل الأغلال فى عنقه ويديه.. ثم سرح بهم مع محفز بن ثعلبة العائذى، ومع شمر بن الجوشن، فانطلقا بهم حتى قدموا على يزيد وهم فى أسوأ حال!!

ثم إن ابن زياد، نصب رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به فى الكوفة ثم دعا زهير بن قيس فسرح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية، وكان مع زهر أبو بردة بن عوف الأزدى، وطارق بن أبى ظبيان الأزدى، فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية.

ثم نودى للصلاة جامعة! فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم بالكوفة، فصعد ابن زياد المنبر وقال:

- «الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته!....».

فلم يفرغ ابن زياد من مقالته حتى وثب إليه عبدالله بن عفيف الأزدى ثم الغامدى، ثم أحد بنى والبة، قالوا:

- «يا ابن مرجانة، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه، يا ابن مرجانة، أتقتلون أبناء الأنبياء وتَكَلَّمون كلام الصديقين!».

فقال ابن زياد: «علىّ بهم»!

فوثب عليهم الشرطى فأخذهم، فقتلوهم أمام الناس وأمر ابن زياد بصلبهم فى المسجد!!

* * *

ولماوضعت الرؤوس بين يدى يزيد وفيهم رأس الحسين عليه السلام، قال يزيد مزهوًا بنشوة النصر:

يُفلقن هامًا من رجال أعزة

علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما!

فقال يحيى بن الحكم بن أمية وهويبكى:

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وبنت رسول الله ليس لها نَسْل[1]

فضربه يزيد فى صدره وقال له:

- «أُسكت!».

فقال يحيى:

- «والله لا أجامعكم على أمر أبدًا».

ثم قام وانصرف وهو يبكى ويقول:

- «حجبتم عن محمد ﷺ يوم القيامة».

ثم كان المشهد الرهيب، الذى تشيب له الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها، وتذهب عنده العقول.. تكشف الستار عن الرؤوس، وتعرض النسوة على يزيد بن معاوية!

ويزيد يعبث برأس الحسين وينكت فى ثغره بقضيب كان فى يده.. وهو يتمثل بأبيات «عبدالله بن الزبعرى» شاعر المشركين يوم أحد:

ليت أشياخى «ببدر» شهدوا

جزع «الخزرج» من وقع الأسل

لأهلوا، واستهلوا فرحًا

ثم قالوا: يا «يزيد» لا تشل!

فقال له رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يدعى «أبو برزة الأسلمى» مذعورًا: «ويحك يا يزيد! أتنكت بقضيبك فى ثغر الحسين! أما لقد أخذ

---

(١) سمية: هى أم ابن زياد.

قضيبك من ثغره مأخذًا، لربما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء يوم القيامة ومحمد ﷺ شفيعه!».

فقال له يزيد غاضبًا: إنك شيخ وقد خَرِفْتَ» فقام يجرّ ثوبه.

ورجل من أهل الشام قد لعبت الخمر برأسه، يدنو من فاطمة بنت على بن أبى طالب، وكانت باهرة الجمال، فيقبض على يدها بشهوة، فارتعدت فاطمة ودفعته بقوتها وتوارت فى أختها زينب، وكانت زينب أكبر منها وأفصح لسانًا وأكثر علمًا، وزينب تعلم أن ذلك لا يكون، فقال الرجل وهو يشير إلى فاطمة: «يا أمير المؤمنين، هب لى هذه!».

فقالت زينب للرجل: «كذبت والله ولئمت!! ما ذلك لك ولا له!!».

فغضب يزيد وقال: «كذبت والله، إن ذلك لى، ولو شئت أن أفعله لفعلتُ».

فقالت فى ثبات: «كلا والله، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا، وتدين بغير ديننا».

فغضب يزيد واستطار، ثم قال:

- «إياى تستقبلين بهذا! إنما خرج عن هذا الدين أبوك وأخوك!».

فقالت زينب عليها السلام: «بدين الله ودين أبى ودين أخى ودين جدى اهتديت أنت وأبوك وجدك».

قال: «كذبت يا عدوة الله!».

قالت: «أنت أمير مسلَّط، تشتم ظالمًا، وتقهر بسلطانك».

فاستحيا يزيد، وسكت، وجلس وهو يلتقط أنفاسه، وعاد الرجل المخمور يقول: «يا أمير المؤمنين، هب لى هذه!!».

فقال له يزيد ضائقًا به: «أغرب عن وجهى، وهب الله لك حتفًا قاضيًا!».

* * *

وعاد يزيد يعبث بثغر الحسين وهو يضحك ويشرب نخب النصر الكبير!

عندئذ علا نشيج نساء هاشم إلا زينب عليها السلام فإنها انتفضت تصيح فى يزيد:

«صدق الله يا يزيد يا ابن معاوية يا ابن أبى سفيان:

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا هوانًا على الله وأن بك عليه كرامة؟ وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحًا، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك، أن الله أمهلك فهو قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك بناتك وإمائك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ أسارى قد هتكت ستورهن، وأضحلت أصواتهن وروعتهن، مكتئبات تجرى بهن الأباعر، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد ليس معهن قريب من رجالهن؟!

أتقول يا يزيد: ليت أشياخى ببدر شهدوا، غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكت ثنايا الحسين بمخصرتك؟!

ولما لا وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة، دماء نجوم الأرض من آل عبدالمطلب؟ ولتردن على الله وشيكًا موردهم، وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى.

أيزيد والله ما فريت إلا فى جلدك، ولا خررت إلا فى لحمك! وسترد على رسول الله ﷺ وآله برغمك، ولتجدن عترته ولحمه من حوله فى حظيرة القدس، يوم يجمع الله شملهم من الشعث: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

﴿قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وستعلم أنت وأبوك معاوية الذى مكنك من رقاب المؤمنين إذا كان الحكم ربنا، والخصم جدنا، وجوارحك شاهدة عليك: ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾. فلئن اتخذت فى هذه الدنيا مغنمًا، لتجدننا عليك مغرمًا، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، فتستصرخ بابن مرجانة، ويستصرخ بك، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان وقد وجدت أفضل زاد تزودت به: قتل ذرية محمد ﷺ!

فوالله ما اتقيتُ غير الله، وما شكوتُ إلا لله، فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا يدحض عنك عار ما أتيت أبدًا».

وسكتت، فأطرق «يزيد» وأطرق كل من كان معه، كأن على رؤوسهم الطير وقع.

ودخلت هند بنت عبدالله بن عامر، زوجة يزيد، فراعها مشهد رؤوس الشهداء، فصرخت وهى تضرب صدرها بيديها بشدة، وصرخت قائلة:

- «يا أمير المؤمنين، أرأس الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله؟!».

- «نعم، فأعولى عليه وحِدِّى!».

وتفجر الصراخ والعويل من أركان قصر الخضراء بدمشق، فلم تكن نساء هاشم وحدهن الباكيات، بل واستهن نساء أمية، فما بقيت امرأة فى القصر إلا وعوت على مصرع أهل البيت وفيهم الحسين عليهم السلام.

- 25 -

فى الوقت الذى بعث فيه ابن زياد برؤوس آل محمد ﷺ إلى يزيد بن معاوية فى دمشق، أرسل رسولاً يحمل البشرى إلى أمير المدينة عمرو ابن سعيد!

فخرج فنادى فى المدينة: «يا أهل المدينة «أنعى لكم الحسين!». فخرج

الناس إلى الطرقات والسطوح والشرفات، وارتفعت الأصوات بالبكاء وصاحت نساء المدينة تعوى كالذبيحات لحظة حشرجة الروح، عند الموت الأكبر، وشقت نساء هاشم الجيوب ولطمن الخدود ووضعن التراب على رؤوسن!

فلما رآهن عمرو بن سعيد وسمع نواحهن المبحوح قال شامتًا: «عجَّت نساء بنى زياد عجة، كعجيج نسوتنا غداة الأرنب»[1] ثم قال: نعى الحسين، كما نعى عثمان!».

وصعد إلى المنبر فأعلم الناس بقتله.

ولبست نساء المدينة ونساء هاشم الحداد، وعمت الكآبة بيوتهن، وأقمن باكيات، وقد جفاهن النوم، ينتظرن عودة النسوة الثكالى من دمشق.

وكان يزيد قد أرفق بهن، وبرَّهن، وأدخلهن على أهله، وفك الأغلال عن على بن الحسين وقال له كالمعتذر: «إيه يا على يا ابن الحسين! أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما رأيت!» فكان جواب على بن الحسين أنه تلا قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾!

ثم أمر «يزيد» فجهزن للسفر إلى «المدينة» فى صحبة حارس أمين، معه خيل وأعوان.. وكان يزيد قد رد إليهن كل ما سلب منهن، من متاع وحلى وثياب.

فلم تكد السيدة زينب تخرج من عند «يزيد» حتى أحس أن سروره بمقتل الحسين قد شابه كدر خفى، ظل يزداد حتى استحال إلى ندم،

(١) و«الأرنب» وقعة كانت لبنى زبيد على بني زياد من بنى الحرث بن كعب، والبيت قاله عمرو بن معدى كرب.

كدَّر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته. فعندما قتل عبيدالله بن زياد، الحسين بن على وبعث برؤوسهم إلى «يزيد» سر بقتلهم أول الأمر وحسنت بذلك منزلة «عبيد الله» عنده، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ندم على قتل «الحسين» فكان يقول: «لعن الله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطهده.. ثم قتله فبغضنى بقتله إلى المسلمين، وزرع لى فى قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلى حسينًا!».

ولكنا لا نراه لام ابن زياد ولا عاقبه ولا عزله عن عمله كله أو بعضه. ومن قبله قتل أبوه معاوية حُجْر بن عدى وأصحابه ثم ألقى عبء قتلهم على زياد وقال: «حمّلنى ابن سمية فاحتملت!».

وخرجت مدينة رسول الله تستقبل وفد النساء الباكيات، ولم تبق مخدرة فى المدينة إلا برزت من خدرها نائحة معولة، واندفعت زينب بنت عقيل بن أبى طالب - أخت مسلم - ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى وتصرخ بأعلى صوتها قائلة:

ماذا تقولون إن قال لكم النبى
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وأهل بيتى بعد مفتقدى
منهم أسارى، ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى!!

وكانت الدموع قد تحجرت فى عيون زينب بنت على عليهما السلام لكنها جلست على قبر جدها رسول الله ﷺ وبقيت تناجيه وقالت:

يا جداه، إنى ناعية إليك «الحسين!».

* * *

كان عمر الحسين عليه السلام يوم قتل خمسًا وخمسين سنة، وكان قتله يوم عاشوراء، فى السنة الحادية والستين.

وبقيت زينب فى مدينة جدها، ونساء المدينة يواسونها ما استطاعوا، وقد حكت لهم تفاصيل المذبحة المدبرة، المذبحة المقصود منها وأد ذرية النبى ﷺ وأولاد علىّ بن أبى طالب، حتى يستقر سلطان الطغاة، ولا ينافسهم منافس، فيذلون من بعدهم العرب.

كان وجود زينب عليها السلام فى المدينة، كافيًا لأن يلهب الحزن على الشهداء، ويؤلب الناس على الطغاة. فكتب عامل المدينة إلى يزيد: «إن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر، وإنها فصيحة عاقلة لبيبة، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين!».

فكتب إليه يزيد يأمره أن يفرق البقية الباقية من أهل البيت فرقًا فى الأرض!

فأبلغ عامل المدينة زينب عليها السلام قرار أمير المؤمنين، وطلب منها الخروج من المدينة فتقيم حيث تشاء، فقالت غاضبة مستثارة: «قد علم الله ما صار إلينا، قتل خيرنا وسيق الباقون كما تساق الأنعام، وحملنا على الأقتاب فوالله لا خرجنا وإن أريقت دماؤنا».

لكن نساء بنى هاشم أشفقن عليها من بطش الطغاة، فأحطن بها يتلطفن معها ويواسينها ويقنعنها بالخروج إلى بلد آمن تقضى فيه بقية عمرها. فخرجت السيدة زينب من المدينة، ثم لم ترها المدينة بعد ذلك، وتفرق البقية الباقية من أهل البيت فى الأرض فرقًا!!

وقد تمت بهذه الموقعة محنة لعلى بن أبى طالب فى أبنائه لم يمتحن بمثلها أحد قط قبل هذا اليوم. فقد قتل من بنيه الحسين بن فاطمة، والعباس وجعفر وعبدالله وعثمان ومحمد وأبو بكر. فهؤلاء السبعة من أبنائه قتلوا معًا فى يوم واحد، وقتل على بن الحسين الأكبر وأخوه عبدالله، وقتل عبدالله بن الحسن وأخواه أبو بكر والقاسم، وهؤلاء الخمسة من حفدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وقتل محمد وعون ابنى جعفر بن أبى طالب، ومن قبل قتل مسلم بن عقيل فى الكوفة غدرًا،

وقتل الحسن بن على مسمومًا.

وبذلك انتهكت أحق الحرمات بالرعاية، وهى حرمة الرسول ﷺ، كل ذلك ولم يمض على وفاته إلا خمسون عامًا..

- 26 -

وبقى عبيد الله بن زياد أميرًا للعراق طيلة حُكم يزيد، يقطف رؤوس المعارضين والشيعة فى العراق، وينتهك حرماتهم، ويهدم دورهم، ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وينفيهم من الأرض.. فكان واحدًا من كلاب الحراسة الذين رباهم معاوية لينهشوا لحم أهل البيت وشيعتهم!

ثم لم تكن عاقبة هذا كله على آل أبى سفيان إلا خروج الملك منهم وانتقاله إلى غيرهم. فقد مات يزيد بن معاوية ولما يملك إلا أربع سنين، قَتَل خلالها ذرية المصطفى ﷺ، وقتل الأنصار رضى الله عنهم فى المدينة وضرب الكعبة بالمنجنيق فأحرقها على أهلها!

قتلته لذته أشنع قتلة، فقد كان يسابق قردًا وهو مخمور، فسقط عن فرسه سقطة كان فيها الموت. مات وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين. فخلفه ابنه معاوية الثانى ولم يتجاوز بعد الثامنة عشرة، وكان شابًا ضعيفًا، غلب عليه الزهد والتقشف، وكان يعترف أن جده معاوية سلب على بن أبى طالب رضي الله عنه حقه فى الخلافة، وأن أباه يزيد بالتالى لم يكن له حق فيها.

فصعد المنبر فقال: «أيها الناس، إن جدى معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ﷺ، وهو على بن أبى طالب وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار قبره رهينًا بذنوبه وأسيرًا بخطاياه، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، وصار فى قبره رهينًا بذنوبه، وأسيرًا بجرمه، إن من أعظم الأمور علينا لسوء مصرعه وبئس منقلبه، وقد قتل عترة

رسول الله ﷺ، وأباح الحرم وخرب الكعبة، وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم فشأنكم أمركم!».

ثم دخل معاوية الثانى بيته، ولزمه، ولم يخرج منه حتى مات مقتولاً بعد أربعين يومًا من خطبته ورفضه خلافة أبيه يزيد، ولم يعين من يخلفه، كما لم يحدد طريقة لاختيار خليفته. وعندما توجهوا إليه يلحون عليه فى اختيار ولى لعهده أبى ذلك عليهم، فأبدى أولاد عمومته من بنى أمية غضبهم عليه فطعنوه بخنجر مسموم.

فلما مات معاوية دون أن يعهد بالخلافة لأحد من أفراد بيته، صلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ليكون الأمر له من بعده، فلما كبّر الثانية طُعن من الخلف فسقط ميتًا قبل تمام الصلاة، فقدم عثمان بن عتبة بن أبى سفيان فقالوا: «نبايعك» قال: «على أن لا أحارب ولا أباشر قتلاً» فأبوا ذلك عليه، فصار إلى مكة وقضى بقية حياته فى الحرم.

وبذلك خرج المُلك من بيت أبى سفيان، وتهدمت القلعة التى بناها معاوية لأولاده بجماجم المسلمين وسقطت دولته التى مهد لها على أشلاء أمة مظلومة، مظلومة من أبنائها، قبل أن يظلمها أعداءها!